سحر الموجى

دارية

رواية

دار الشروق

سحر الموجي

دارية

رواية

دار الشروق

دارية

سحر الموجي

تصميم الغلاف: حسين بيكار

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

تصنيف الكتاب: رواية

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر القاهرة مصر

تلفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٠٥٥٦/٢٠٠٨

ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٠٩-٢٤١٠-٤

إلى روح أمي.. «جمالات الزيادي»

ترفرف حولي أينما أكون.

وإلى طفليَّ.. «ريم» و«مروان»..

ترفرف روحي حولهما أينما يكونان.

ربما خلوت أحيانًا بنفسي وخلعت بدني، فصرت كأني جوهر بلا جسم، فأكون داخلًا في ذاتي وراجعًا إليها وخارجًا من سائر الأشياء سواي، وأكون العلم والعالم والمعلوم جميعًا. وأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى معه متعجبًا، وأعلم عند ذلك أني من العالم الشريف جزء صغير. وحين أوقن بذلك أرقى بذهني إلى العالم الإلهي ويخيل إليَّ كأني قطعة منه. فعند ذلك يلمع لي من النور والبهاء ما تكل الألسن عن وصفه والآذان عن سمعه. ومن الغريب أني أشعر بأن روحي مملوءة بالنور مع أنها لم تفارق البدن.

أفلوطين

الفيلسوف الأسيوطي السكندري اليوناني

المحتويات

فِي مَحَارَةِ الروُحْ

تأزمت علاقة «دارية» و«سيف». كان واضحًا منذ البداية أنه لا يوجد ما يربط بين هذا الرجل وتلك المرأة. هو يعمل مع الأرقام. ويعيش أيضًا بالأرقام. ١+١=٢، لا يستطيع إنسان عاقل إنكار هذه الحقيقة. لم تستطع أن تواجهه برأيها. أن تقول بصوت عادي خالٍ من الانفعال إنها تعتقد أن ١+١=١. هذا بالطبع إن وجد بين الاثنين هذا الانسجام الكيميائي بين روحين. فيمكنه مثلًا أن يلتقط بسهولة ذبذبات حيرة أو قلق في عينيها العسليتين الصامتتين. ويمكنها أن تفهم سبب عذابه. تريحه، وتكون له أمًّا أخرى.

لم تكن المواجهة من طبائع دارية. لا لشيء إلا لكونها لم تكن تعرف. لكن في سنوات زواجها الأولى من سيف لم تكن تعرف أنها لا تعرف. كانت فتاة طيبة وديعة تسعى للحصول على إعجاب الآخرين،

على مباركتهم لمحاولاتها الدءوب أن ترضيهم. حازت رضا ناظرات المدرسة التي عملت بها فور تخرجها. واكتسبت صداقات استمرت. هل كان من السهل عليها أن تدرك أنها عروس ورقية مجوَّفة من الداخل، يملؤها هواء. تتطاير فيه لحظات حنين مجهولة المصدر - غير محددة الهدف - تنتابها أحيانًا عندما تختلي بنفسها في ظلام شرفة شقتها في ضاحية «١٥ مايو» في ليالي الصيف الحارة؟ تجلس على كليم صغير فوق الأرض. تنظر من وراء القضبان الحديدية إلى البنايات المتلاصقة القريبة. مغلقة على ناسها والحكايا. يزداد إحساسها بالاختناق فترفع عينيها إلى السماء. تنظر بشوق ووجل إلى نصف قمر فضي. ولا تفهم لمَ يدق قلبها بهذا العنف غير المبرر في تلك اللحظة التي تنتهي بصفر كبير. تجرجرها قدماها إلى غرفة نومها. لا تعرف إن كانت تهرب إلى حضن سيف أو منه. كانت تحبه بالطبع. وإلا فَلِمَ أصرت على الزواج منه هو بالذات رغم معارضة أبيها؟ «لا يوجد شبه بينكما يا

دارية». كان أول رجل تتفتح عينا روحها على وجوده. أول من حوّطها بالحنان ودللها. «أنت طفلة جميلة». وكان يصرح لها أنها طفلة بالفعل، لديها الكثير لتتعلمه والكثير لتحذر منه. كانت دارية تصدقه وتنظر بانبهار إلى خبرته الأكبر. وظلت ترى الدنيا بعينيه حتى أدركت بعد سنوات أنها محاصرة دومًا بإحساس غير مفهوم أن العالم كائن مبتور. في تلك اللحظات العاجزة كانت تلوذ بملمس الورق ورائحة الحبر. تكتب «لا أفهمني».

قضت السنوات الأولى من زواجها في حالة حب مصحوبة باعتذار دائم. تعتذر أنها لم تقم بإزالة التراب - الآتي من مصنع أسمنت حلوان والمحاجر - على الوجه الأكمل. أن الطعام كان زائد الملح. أنها ضحكت بتلقائية مع زملاء العمل. كان اعتذارها مصحوبا بمحاولات دءوب أن تحسِّن من نفسها. بدأت تحاسب دارية بمنطق الأرقام. وكانت النتيجة غالبًا بالسلب. لم يكن سيف سيئ النية. بل كان

يشعر بمسئولية تجاه دارية قليلة الخبرة، كثيرة الأخطاء. كان يوجهها بنفس منطق توجيهه لأمينة ذات السنوات الأربع. تستفزه أخطاؤها المتكررة فيحاول أن يمد حبال صبره حتى تكبر دارية وتفهم كيف تتعامل مع العالم الضاري المتربص بها على عتبة باب المنزل.

لامها مرات أنها تنسى إخباره أن الخبز المخزَّن في فريزر الثلاجة قد قارب على النفاد، وقرر إزاء هذا الإهمال أن تذهب هي لشرائه. هناك أدركت دارية أن الطابور طويل. كانت تترك سيارتها الصغيرة على مقربة من المخبز وتنتظم في الطابور. وجاءت المرة الأخيرة التي ذهبت فيها لإحضار العشرين رغيفًا بعد يوم حار طويل مرهق من عمل المنزل وآلام دورتها الشهرية. لم تتحمل أعصابها وجسدها المشدود ما قد تحملاه من قبل. لم تكن تثيرها عادة نظرات العمال القائمين بأعمال البناء في الضاحية الجديدة. ما أثارها تلك المرة هو عدم النظام. الطابور

في مكانه لا يكاد يتحرك لأن هناك دومًا من يأتي ليقف في المقدمة أو يستأذن أول الواقفين ليحضر له عشرين رغيفًا. لا مانع إن أتى هذا التصرف من جارة عجوز. لكن أن تأتي شابة أصغر منها وتدفع في المقدمة طفلةً لا تتعدي السنوات الست:

- بقى ده تصرف حضاري؟!

نظر الجميع لصرختها كمن يشاهدون شيئًا مسلِّيًّا. عندما عادت إلى المنزل باكية، محنية تحت وطأة الغربة، وجدته يشاهد التلفزيون ويحدث أمه تلفونيًّا:

- لا، طبعًا يا ماما. دبلوم نقد فني إيه وبتاع إيه! هي فاضية. مش كفاية الكتب اللي مالية لنا بيها البيت؟ معلش، البنت صغيَّرة وبكره تتعلم.

شرحت القصة في صوت متقطع مهزوم. لم يفهم. قال وعلى وجهه ابتسامة تشجيع ممزوجة ببعض الشفقة

والدهشة:

- يا داري يا ماما لازم تتعلمي تتعاملي مع المجتمع بشكل أحسن. أنا باساعدك.

بلعت دارية غصة عدم الفهم. نامت.

* * *

تتفتح عيناي على ظلام حالك. لا أتبيَّن مكاني. أنتظر لحظات حتى أفيق من الغفوة العميقة. تخفت حدة الأسود قليلًا عندما تعتاده عيناي. تتحسس يداي ما تحتي. أرض رطبة. تغطيها أوراق شجر جافة. «عراء!». أنتفض واقفة. تحاصرني متاهة جذوع أشجار ضخمة. لا أملك استيعاب حجمها. رغم الرطوبة الخانقة تتسرب برودة من قدميَّ الحافيتين إلى عظامي وأنا أسير فوق الأرض المبتلة. لا أفهم إلى أين. كل خطوة تزيد من خوفي. من توقعي لهجوم ما من كائن ما في أي لحظة. حر خانق. ورق الأشجار ثابت في

مكانه كأنه داخل إطار صورة.

أصواتٌ هسيس. ثعابين كثيرة. لا تأتي زحفًا على أرض الغابة. لكنها تهبط بثقلها من أعلى الأشجار. يخترقني صوت ارتطامها بالأرض. يمينًا. ويسارًا. لم تلمسني بعد. لكن قلبي ينتفض متمردًا على حدة رعب يتزايد. والعرق يتصبب. لا أكاد أتنفس. أجرجر حمل قدميَّ بصعوبة. أصلٍ إلى حافة نهر أو بحيرة. تبهت العتمة قليلًا بضوء خافت يأتي من وراء جبل على الناحية الأخرى من النهر. ألاحظ في تلك اللحظة ضآلة قامتي. كأنني «أليس» في بلاد العجائب. لا أعرف كيف ومتى انكمشت هكذا. فوق قمة الجبل - بيني وبينه البرزخ المائي الغميق - يقف كائن. جسد رجل طويل نحيف. ملامحه مطموسة في رحم العتمة. منبعثة منها. وجهه ناحيتي. أدقق. له وجه حيوان.

لماذا يخترقني نصل نظرته على البعد بهذا الشكل الوحشي؟ ماذا يريد مني؟

قدماي باردتان. متصلبتان. الخوف يحجب عني وجه السماء.

أنتفض من نومي فزعة. أنفاسي متلاحقة. والعرق يغرق جسدي.

* * *

تحرص دارية على تدريس الحصص الأولى حتى تعود من المدرسة قبل موعد «أمينة» و«جاسر» بوقت يكفي لإنهاء المهمات اليومية. تزيح التراب من فوق خشب الكنب الأرابيسك البني الذي صممته بنفسها. والفوانيس النحاسية المفرغة. تلقى ضوءًا مستترًا على لوحات مرسومة بالفحم للمغربلين وبوابة المتولي وساحة وكالة الغوري المربعة. هدية «هادية» لها بعد ولادة جاسر. تشعر بالسعادة عندما تستنشق رائحة الغسيل المعلق على الحبال الصفراء الطويلة. تتأمل ألوان ملابس الأولاد الزاهية وأبيض غيارات سيف الداخلية. تتساقط منها نقاط مياه

شفافة. وعندما تسدل الستائر الخضراء، تهدأ حرارة المنزل. وتفوح رائحة كيك البرتقال الذي خبزته أثناء إعداد الغداء. تضحك جارتها هناء عندما تمر عليها في ذلك الوقت:

- إنتِ عاملة زي المكوك يا دارية. خمسين شغلانة في
وقت واحد.

تضحكان وهما ترشفان الشاي مع شرائح الكيك الذهبية، تتخلل مسامها قطع قشر البرتقال الدقيقة.

يدخل الطفلان بصخبهما ووجهيهما المتربين. تسرع بهما إلى الحمّام قبل أن يجلسا للغداء. تُدْخِل الحقيبتين إلى غرفتهما. تنظر في واجب أمينة المدرسيّ. تضع الكراسات المطلوبة فوق مكتبها. تزوغ أمينة من أداء الواجبات بعذر يلي الآخر. تفتعل مشاحنات مع جاسر. ودارية تُنْبئها أن لديها فسحة من الوقت حتى

الرابعة والنصف، ثم تجلس إلى مكتبها.

فتطلب أمينة سماع الكاسيت. وترقص مع جاسر. عندما تنظر دارية في كراساتها تلمح ظلال إهمال، أسئلة غير مجابة، درسًا لم ينقل كاملًا.

- عايزه أتكلم معاكِ يا أمينة.

- أيوه يا مامي.

- بصي يا حبيبتي إحنا بنختار شكل حياتنا. وانتِ قدامك سِكّتين. تِحِبِّي تبقي واحدة ست كل شغلتها تطبخ وتنضَّف البيت وتتفرج على التلفزيون وتخلّف أولاد ما تعرفش تقرا معاهم كتاب، ولَّا تكوني ست لها عقل. بتعلم نفسها وتغيَّر في حياة الناس التانيين وتقرا مع أولادها كتب جميلة؟

- عايزه أبقى مُدرِّسة زيك يا مامي. وأرقص باليه.

- وده هييجي لوحده ولّا لازم تهتمي بدروسك علشان تعرفي تدَرّسي بعد كده. أو تبقي فنانة؟

- طيب يللا أشرح لك درس العلوم اللي أخدتيه النهارده. حضري ورقة وقلم وأنا هاجيب السبورة.

تجلس دارية باهتمام أمام أمينة. تنقل ما تكتبه على السبورة. وتتركها تعيد شرح درس اليوم. وتسأل. وعندما تجيب أمينة، تطمئن دارية أنها قد استوعبت الدرس. يدخل جاسر. تعطيه دارية كراسة وقلما وتطلب منه الاستماع إلى الدرس. يمل سريعًا. فتعده إن بقي هادئًا أن تقرأ معه قصة. تنتهي أمينة من شرح الدرس. فتتركها دارية لواجباتها، وتأخذ جاسر إلى غرفة المعيشة.

- ولما «بينوكيو» كدب على الساحرة وقال لها إن القطة والتعلب سرقوا فلوسه، بص لقي مناخيره الخشب بتطول. بتطول.

ضحكت الساحرة. وهو طبعًا..

- فهم إن مناخيره طولت علشان هو كداب.

- ولما ابتدى يروح المدرسة...

- بقى ولد بجد. مش عروسة خشب.

- يا جسُّور إنت حافظ القصة أكتر مني.

- أنا كمان باحب أروح المدرسة.

- علشان إنت ولد عندك مخ جميل.

عندما يعود سيف من الشركة يجري الطفلان نحوه. وتعيد تسخين الغداء. تستمتع دارية بمشاهدته يلعب معهما. كان وجهه الخمري الصارم الملامح يلين حينئذ. يذكّرها بأيامهما الأولى معًا عندما كان يحنو عليها ويحوطها بالأمان. لم يكونا يختلفان لأن دارية كانت دائمة الاقتناع بوجهة نظره في الحياة. لم تكن تدرك أن بذرة وَعْيها كانت تنمو في اتجاه مختلف إلا

عندما يحتد الجدال إن حاولت الدفاع عن رأي لها. وعندما يركب جاسر فوق ظهر أبيه، تضحك وتتناسى نقاشاتهما المُجدبة. تفرح باجتماعهما معًا. الاختلاف لا يفسد الأشياء. وسيقتنع سيف يومًا ما بها. تحكي له عن يومها. وعندما يسمع بزيارة هناء وقت الظهيرة، يمتعض:

- مش عارف إيه اللي عاجبك في هناء دي؟ واحدة تافهة. مالهاش اهتمامات.

- بس إنسانة جميلة. هو انت يا سيف لا عاجبك هادية المثقفة، ولا هناء «التافهة»!

- هو مش بيتك أوْلَى. يعني كل اللي وراكِ خُلُص خلاص؟

- سيف أنا حاسّة بالوحدة. أمي مش موجودة وأبويا مسافر. أنا محتاجالك.

- حاسَّة بالوحدة ووراكِ كل المسئوليات دي، واحنا حواليكِ؟

- مش شرط يا سيف. ممكن تحس بالوحدة وانت وسط الناس.

- حاولي انتِ تغيّري من نفسك وتعدِّلي أولوياتك.

* * *

- «أمي!».

تنتفض روحي من بهجة المفاجأة. يحبس الدمع صوتي فلا يكاد يهمس. «أمي مازالت هنا». لم تذهب إذن إلى الشاطئ الآخر في رحلة ليلية طويلة. لا بد أن الأخبار التي وصلتنا كانت مزحة سخيفة لامبرر وراءها إلا قسوة ما. ربما من أطلق هذه المزحة لم يكن يعلم مدى الحزن والألم الذي سبَّبه لنا. لا يهمني البحث عن مصدر المزحة. أشعر بفرح عارم. ارتياح عميق أنه «حصل خير». أمي ما زالت معنا. ما زال صوتها الجميل يتخلل روحي. ويداها الصغيرتان الغريبتان الناعمتان تتخللان

شعري. تمسحان ظهري من أعلى لأسفل بحركة رقيقة بطيئة تدفع بالخدر الدافئ إلى روحي. (شبهت «هادية» يديها بِيَدَيْ طائر لأنها كانت تحوي أربع أصابع فقط. لمْ نر ذلك شيئًا غريبًا. بل رأيناه كما رأته هي نعمة جميلة لأنها جعلت جدي يصر على إتمامها تعليمها لتصبح مميزة).

تنمحي تفاصيل الحلم المتكرر. تبقى فقط نشوة تصديق أنها معي. حولي. داخلي. أقرأ لها الفاتحة ورائحة جلدها المميز عالقة في أنفي. وملمس بشرتها الطفلة ساكن في أناملي.

* * *

غُصَّةُ اليُتْمِ

تَجْرَحُ حَلْقي،

ينكتم مَدُّ الآهِ بين ضلوعي،

يجفُّ ماءُ الألمِ

فوقَ نار القهرِ المنسيَّة.

غصَّةُ اليُتْمِ

تجرحُ حَلْقي،

أرَى من وراءِ ستار الملحِ

بنتًا في حِضْنِ أمِّها

تُربِّتُ ظهرها

تمْسَحُ شَعْرَها،

أقنعُ نفسي

أني فوق الثلاثين

لا أحتاجُ مداعبةً،

أعرفُ أنِّي كاذبةٌ.

غصَّةُ اليُتْمِ

تَشْطِرُ قلبي نصفينِ؛

نصفًا للماضي

والنصف الآخرَ للآنْ،

نصفًا لها حيث تكونُ

ونصفًا لي،

نصفًا للخبزِ الساخنِ بنار الفُرنِ العملاقِ

لطقطقة تحمير دجاجةٍ،

البسلَّةِ الحمراءِ

والرقاقِ

أتسلَّلُ إلى حِضْن الدَّاخِلِ الطَّرِي

أتركُ قرمشةَ الحافَّةِ،

نصفًا لأمانِ النومِ

في منزلٍ تسكنُـهُ هي،

يسكنُـهُ أبي

قبل أن يغويه خريفُ الغربةِ

ويلفظُهُ ثلجُ الوطنِ.

غُصَّةُ اليُتْمِ

تُنْسِيني أحيانًا

هَفْهَفَةَ الرُّوحِ الشفَّافةِ

فوق مكاني،

لمسة اليدِ الحانيةِ

على كتفي،

أنْسَى في موجِ الاشتياقِ

أنِّي

لستُ وحيدةَ.

قرأ سيف قصيدة كتبتها دارية صباح تاسع عيدِ أُمّ يمر عليها بعد رحيل أمها. جاءته في جلسته المعتادة أمام التلفزيون. سلمته الورقة. يغلب على دموعها نوع من الرضا لا يتوفر عادة في مثل هذا الموقِف. غالبًا ما تتبعه جلبة ما. مناقشة. تفسير. تبرير. نظر إليها مندهشًا:

- غريب الحنين المَرَضِي ده لأمك. إن دل على شيء يدل على تعلق بالماضي لازم أستنتج منه إنك مش راضية عن حياتك اللي لازم تكون بديل عن أي فقد. استهدي بالله وقومي شوفي
اللي وراكِ.

ثم وجّه حديثه لأمينة ذات السنوات الثماني:

- أمينة. قومي أقفي مع ماما في المطبخ. اتعلمي لك حاجة تنفعك.

لم تستطع دارية أن تكبح انفعالاتها في مثل هذه المواقف. أثناء هذه الحوارات المتكررة. كانت تحاول إفهامه أشياء تحسُّها بصدق. تفشل. لم تستطع يومًا أن تحدد مكان الفجوة الصحيح. هل هي غير قادرة على إفهام سيف ذاتها؟ هل ذاتها بهذا التعقيد، أم إنه لا يملك جهازًا يمكنه من استقبال موجات إرسالها؟ أنهت الجدل الدائر حول ما تكشفه القصيدة بقولها:

- ربنا يخلي لك أمك وأبوك.

لم يكن سيف متبلِّدًا. كان فقط يتحرك ويفسر العالم في إطار واضح لديه. «الأسرة» هي المفهوم الأسمى والأشمل. الأشخاص موجودون لتحقيق هذا المفهوم الذي يتنافى مثلًا مع تعلق دارية بصديقاتها وأبيها وكتبها والأوراق. أشياء تُعلن دارية أنها ليست مجال مساومة لديها. لطالما طلب منها أن تكون شخصية معتدلة مثل أمه. كانت مُدرِّسة أيضًا. لكنها لم تُشْعِر سيف يومًا أنها تعمل.

أن هناك ما هو أهم من احتياجاته وهدوء المنزل المنضبط على دقات الساعة الأثرية المعلقة في الصالون.

وعندما كان سيف يقارن نفسه بدارية، تخف كفتها. كان دائم التأكيد أن العالم هو بيته. وهو - كرجل - كان من الممكن أن يستخدم حقه بشكل يتناقض مع قدسية الكيان الأسري. بأن يكون له أصدقاء وجلسات في النادي. «حتى مشاريعي الخاصة مش هانفذها إلا لما أطمّن على سلامة الأسرة». كانت دارية تقرأ في عينيه اندهاشًا عندما يعود من الخارج فيجدها في جلستها الليلية في الشرفة. أو عندما يتعثر في أوراق فوق مكتبها. فتشعر أنها مضطرة لمنح إجابات لا تملكها بعد. كيف تفسر كآبةً ما يراها سيف في كتاباتها؟

أقبيةُ الرُّوحِ مسدودةٌ

مغلقةٌ

في العتمةِ

مخبوءةٌ

في صخب الحياةِ اليوميةِ

تحت وطأةِ الهَدْرِ السامّ

والهدرِ الإنساني

لماذا لامفرَّ من الحفر بين الأشياءِ

حتى أجدَ بين ركامها

لؤلؤة؟

*** * ***

أرى طفلين. أحدهما لا يتعدى السنتين والآخر أربع أو خمس سنوات. يتقافزان فوق سرير جدتي في البيت القديم الذي يسد هيكله شريان الشارع الضيق بإباء وطيبة. السرير ضيق. يكفي لشخص واحد.

يلاصق نافذة طويلة، خشب شيشها قديم متهالك. تصل حافتها إلى أعلى من حافة السرير بقليل. قلبي يدق بعنف مع كل قفزة من قفزاتها. أصرخ. لا أسمع صوتي. أصرخ فيهما أن يبتعدا عن النافذة. لا يستمعان إليَّ. الطفل الصغير يقفز عاليًا فلا تعود قدماه إلى سطح السرير. بل إلى الخارج. تمتد يد أحد أقاربي إليه قبل أن يهوي. يلتقطه. يقذف به إليَّ. آخذه في حضني. لا أكاد ألتقط أنفاسي لأن الطفل الآخر الأكبر قليلًا لا يلبث في اللحظة ذاتها أن يهوي بالفعل. مُقدَّر لا أستطيع منعه. لكن قريبي ينجح بمعجزة لا أفهمها أن يمد إلى أسفل النافذة يدًا طويلة. يلتقطه في منتصف المسافة إلى الأرض. أخاف حتى على قريبي الذي يتدلى معظم جسده في الهواء أن ينزلق هو الآخر.

لماذا أظل منقبضة حتى بعد الاستيقاظ؟

«حصل خير».

لم يحدث سوء لأيٍّ من الطفلين. ولماذا ألوم نفسي أنني لم أفعل شيئًا غير الصراخ الصامت؟

كيف أحاسبني على أحداث حلم؟

أنا «لا أفهمني».

* * *

- إنتِ تقعدي هنا يا مامي. الستارة لسه ما فتحتش، ما تبصيش. غمضي عِنيكِ كويّس.

أدارت أمينة جهاز التسجيل. ثم سحبت جاسر من يده واختبآ خلف العمود القائم في منتصف الصالة الواسعة. ما إن بدأت موسيقى تشايكوفسكي تصدح حتى دخلت أمينة على أطراف أصابعها. وقفت في حركة مسرحية رشيقة أمام دارية:

- افتحي عِنيكِ بقى.

صفقت دارية بحماس وأمينة تدور مع

الموسيقى على أطراف أصابعها ويداها لأعلى:

- يللا انتَ بقى.

دخل جاسر يتعثَّر. فالتقطته وأخذت تدور بجسده النحيل في أرجاء الغرفة. على وجهها رومانسية متقنة. تخفي بعض الشراسة وهي تأمر جاسر:

- اعمل زيِّي بقى.

وجاسر ينصاع كأنه في مهمة جليلة. ودارية تضحك. عند انتهاء الفاصل الموسيقى الأول جرت أمينة إلى ما وراء العمود ساحبةً جاسر الذي انبطح أرضًا، ثم قام بسرعة إثر شخطة حازمة من أخته. ثوانٍ ودفعت به إلى قلب الصالة:

- حيّي الجمهور زي ما علمتك.

فيفعل. ودارية تصفق. ويزيد تصفيقها عندما تلحق به أمينة. وتنحني برشاقة

للتحية.

- ممكن أرقص معاكم؟

- بس تتعلّمي بسرعة ياامامي..

أدارت أمينة الموسيقى مرة أخرى. ودارية تتظاهر بمحاولة تقليدها وتخطئ. فتصيح أمينة التي تقمصت دور المُدَرِّسة:

- وبعدين بقى؟!

- أنا آسفة. هاعملها صح المرة الجاية.

وعندما تُنَفِّذ الحركة صحيحة، يقفز جاسر ويدخل حلبة المنافسة. ترقص دارية تبعًا لإرشادات أمينة التي بدأت تُظهِر بعض التحمس المحسوب لتشجيع تلميذيها. تتظاهر دارية بنسيان ماتعلمته وتعيد الحركات بشكل خاطئ. ويضحك جاسر وأمينة وهما يتابعانها ترتـدي قنـاع الجدية. فتقفز وترفع قدميها. تهبط بهما في حركة بهلوانية. فتتعثَّر. وتقوم تحيي

الجمهور لتداري خطأها. وهما يضحكان، ويرتميان بثقل جسديهما على دارية. أنفاسها تتلاحق من شدة المجهود. وهي تحتضنهما في آن واحد. ويضحك ثلاثتهم طويلًا. عندما استغرقا في النوم شدت دارية عليهما الغطاء. ابتسمت وهي تتأمل ظل ابتسامة على الشفاه الوردية البضة.

سكن العالم فجأة. انتفض جسده ثم هدأ وسط إطباق الظلام في ليلة رطبة بلا قمر أو نجوم. جرجرت دارية جسدها المثقل إلى مكانها على الأرض في ركن الشرفة. تقاوم الرغبة في النوم لتنهل قليلًا من عبق الصمت علَّه يهدئ من الجلبة الدائرة في رأسها. لو كان سيف بالمنزل لآثرت النوم. لكن خروجه الليلي النادر أغواها بالحديث معها. مَلَّت الدوران في دوائر مفرغة تفضي إلى لا شيء. وكان إحساس ما تتنامى بذرته داخلها بضرورة مواجهة المجهول. هذا الظلام الذي يفقد الأشياء طعمها. ويفقد وجهها ابتسامته القديمة. قررت أن تبدأ الحوار معه. تمسك

ورقة بيضاء وقلمًا. على العكس من مرات عديدة سابقة - كانت تنتهي فيها إلى الورقة البيضاء نفسها - هذه المرة بدأت بعض الأشياء تكتب نفسها. في البداية بعض الحروف والخطوط. دائرية. ثعبانية. متداخلة. تبدأ بعدها الجمل تكتسي لحمًا:

- لا أعرف لِمَ أنا عصبية وتعسة هكذا. من هناك؟ من أنتَ؟

- أنا أخْتنق. لكل شيء مكان في حياتك. إلا أنا.

- من أنَت؟

- أنا نفتيس. أنت تئدينني. لكني أرفض أن أموت.

- لا أريدك أن تموتي. أنتِ مهمة جدًّا عندي. لكن ليس بيدي أن أجد لك حيّـزًا. من سيهتم بأمور المنزل والأولاد والمدرسة؟

- أريد أن أقرأ. أكتب. أتنفس.

- أعِدُكِ أن أنظم وقتي أكثر. ربما ساعة في الصباح. قبل
بداية اليوم.

- لا أعرف إن كان بإمكاني الثقة في وعودك.

- أعدكِ.

بدأت دارية تتعود الاستيقاظ قرب موعد الأولاد. عندما يكون اليوم لا يزال وليدًا. عندما يكون الندى طريًّا فوق الصفصافة الملامسة لشرفتها. يغسل آثار تراب الأسمنت المتراكم على الوريقات. تنزلق نقاط رمادية ترطب أحزان فقدها وتجلو غربتها. تمسك فنجان القهوة. يدفئ روحها المقشعرة. وربما تكتب سطورًا. شعاعات نور تولد على استحياء. فتزيح بعض العتمة:

بين مدِّ الروحِ

وَجَزْرِها

ترقدُ محارةٌ وحيدةٌ

حُبلى بالأسرار

تتقاذفُها موجاتُ الملحِ

أحيانًا

تطؤها أقدامُ الأطفالِ.

والباعة الجائلون

يحملون لُعَبًا ملونةً

قمصانًا.. وحكاياتٍ

يغطِّيها رملٌ خَشِنٌ

ساخنٌ

ونفاياتْ،

لكنَّ مَدَّ اليومِ التالي

يأتي.. يغسلُها

يُصبحُ أبيضُ بَشْرَتِها

مرآةً

تعكسُ وَجْهَ نوت

فضيًّا مستديرًا

متجدِّدًا

بمعجزة تحدث ببساطةٍ

كُلَّ يوم.

تعدت درجة الحرارة الأربعين. وَظِلُّ الشمسية لم يخفف من وطأة صهد الظهيرة. الأطفال يملئون حمام السباحة بصخب براءتهم. يمتزج بصوت المذياع. عبد الحليم ونجاة ونشرة الثانية والنصف.

والأمهات حول الطاولات البلاستيك المستديرة البيضاء. ترقد فوقها أكياس السندوتشات والبيض المسلوق وأكواب المياه الغازية والشاي. يمتزج العرق ببسماتهن وهن يتابعن قفزات الأطفال في المياه الزرقاء المتماوجة بعنف حركتهم. تفرد دارية على الطاولة أوراقًا. تقرأ «سعدي يوسف»:

لكن عليكَ، لكي تعرف أنك حرٌّ

وتظلَّ الحرْ

أن تتثبت من موطئ أرضٍ

كي ترتفع الأرضْ

كي تمنحَ أبناء الأرضْ

أجنحةً.

يخرج جاسر من الحمام. يجري ناحيتها فتلقي على جسده المبتل فوطة:

- بالراحة يا جسَّور علشان الورق ما يتبلِّش.

تعطيه سندوتشًا. لا يكاد ينتهي من نصفه حتى يتركه ويقفز في الماء بحركة بهلوانية. تضحك دارية. يأتي سيف مكفهرًّا. ينقبض قلبها.

- عندك حق. الدنيا حر.

- ورقك كمان في النادي يا دارية!

- ومالُه يا سيف؟

- فين أمينة وجاسر؟

- هناك اهُم.

- لأ، خليهم قدامك. ممكن تحصل حاجة وانتِ مش واخده بالك. صاحب بالين كداب.

- عيني عليهم. والمدربين معاهم. وبعدين إحنا بنيجي النادي كل يوم. يعني أقعد

اتحمَّص في الشمس وما اعملش حاجة؟

- مشكلتك إنِّك منفصلة عن الواقع. ربنا يستر على الأَولاد.

يتفحص سيف دارية وقد أغلقت الكتاب. يُداري إحساسًا بالضيق وشيئًا من عدم الأمان. يمد إليه يده ويفرُّ أوراقه. يقذف به إلى الطاولة:

- مجرد كلام وأفكار نظرية بتشدك لعالم مش موجود. أنا شخصيًّا أحب أوْصَل للمعرفة بنفسي من غير وصاية ناس ما اعرفهمش. المعرفة العملية أهم. تفتكري واحد من اللي انتِ مبهورة بيهم دول بيفهم في أي مجال من مجالات الحياة العملية غير المجال النظري الضيق اللي حاصر نفسه فيه؟

- ما افتكرش إن حد يقدر يلوم العقاد ولَّا المازني ولَّا يوسف إدريس إنهم ما بيفهموش في أي حاجة غير في الكتابة

والأدب.

* * *

أرى الشارع الذي يطل عليه جامعا السلطان حسن والرفاعي مربعًا كبيرًا. تضيئه مصابيح صفراء قوية. الوقت ليل. لا أحد هناك. ولامخلوقًا واحدًا. أبي يمسك يدي. يقود خطواتي حول اتساع المكان. وضخامة أبواب الروح المزخرفة بنقوش النحاس والفضة. مع ارتفاع المآذن المتقابلة. بينها حديث لا ينقطع. يخترق الضوء جسد الظلام المسَجَّى بلا حراك. لا ندخل من البوابة الحديدية العالية التي تسور الجامعين. بل نلف بمحاذاة السور الطويل. تُقَبِّل عيناي السارية الرخامية على باب السلطان حسن بنقوشها العجيبة. أجدنا في الخلف. ساحة كبيرة تمتلئ بالطوب والتراب والنفايات. نمشي في المكان المهدم كأن هناك اتفاقًا صامتًا بيننا على الطريق الذي لا بد أن نسلكه حتى نصل أبواب الجوامع الخلفية. وندخل

منها. أثناء عبورنا فوق الركام، نمر على ساحة مربعة ذات بلاطات متساوية وإن كانت متربة. أفكر أن هذا المكان لا يمكن إلا أن يكون مسرحًا. ينقصه فقط تنظيف. ثم تدخله بعدها كاهنات إيزيس في غِلالات بيضاء فوق القد الممشوق. على رؤوسهن تيجان اللوتس الأبيض (كل زهرة تُحدِّد ملامح انحناءات الدلتا). يرقصن بنعومة على أنغام قيثارة نبيلة. وشعاع فضة القمر. يد أبي الكبيرة الدافئة ذات العروق النافرة تحتضن يدي الأصغر. نسير في اتجاه الباب النحاسي القديم.

عندما أصحو يبقى معي النور الغامر موقع السلطان حسن والرفاعي والسكون الجميل. ودفء يد أبي. يبقى داخلي إحساس بسلام وسكينة وهدوء. أذهب إلى مكتبي. أعيد قراءة آخر خطاباته لي. تخفق الورقات الأربع بروحه وروح أمي ونبض بيتنا القديم عندما كنا معًا قبل تفرق الزمن والمسافة.

تبقى أشياء معي...

* * *

لم يكن هذا الصباح الصيفي ككل صباحات دارية. تلقت من هادية مكالمة تلفونية:

- افتحي جورنال النهارده. صفحة الأدب. مبروك يا دارية.

تتابعت الدمـوع الساخنة على وجنتيْ دارية وهي تقرأ اسمها تحت قصيدتي «غُـصَّة اليتم» و«كل يوم». لم تخبرها هادية أنها قد أرسلت بعض قصائدها إلى إحدى الصحف المهتمة بنشر الكتابات الجديدة. كانت مفاجأة هزت الروح المثقلة. رفرفت. جرت إلى سيف وصوتها يرتعش بالفرحة والدموع. قال بنبرة حاول أن يجعلها تبدو هادئة:

- مبروك يا داري. مافيش شك إنك موهوبة. بس.. مش كان مفروض هادية تستأذنك

قبل النشر؟!

وأخذ يتأمل حالها وهو يداري مرارة الدهشة. تكاد دارية تسمع فوران أسئلته. لماذا لا تبدو بهذه السعادة وهي تؤدي أعمال المنزل وتُذاكر لأمينة؟ لماذا تتغيَّر ملامحها إلى هذا الحد، فتبرق العينان وتنفرج أسارير الوجه عن ابتسامة خاصة لا يراها إلا الآن؟ كانت تعرف أن هناك شيئًا ما في هذه الابتسامة وفي رعشة صوتها يخيف سيف. يدفعه لتأمل ما يمكن أن تكون عليه الحياة إن استجابت لما كان يسميه «النَدَّاهة». فاندفعت في طريق يأخذها بعيدًا عن واجباتها الأساسية ومسئولياتها الأولى. ويأمل «بكره تكبر». لم يصدق أبدًا تأكيداتها أنها تحب أسرتها وأنها تريده بجانبها. لم يقتنع برأيها ألَّا تعارض هناك بين كونها زوجة وأمًّا وإنسانة لها اهتمامات.

ركبت السيارة بجانبه حتى يوصلها إلى المدرسة في طريقه إلى الشركة. كان

صامتًا. وكانت هي أيضًا صامتة. تقف حائلًا بين دارية ودارية بعد أن وصلتها ذبذبات صمته الخفية. هذا يوم خاص جدًّا. وهي لا تريد بدء مناقشات يحلل فيها سيف معنى وجودها. يَجزم: «إنتِ مش طبيعية». هو الطريق نفسه الذي يقلهما كل يوم إلى القاهرة. البيوت الصغيرة القديمة التي أكلت جدرانها الرطوبة إلى اليمين. متنافرة الطرز. متناثرة بغير انتظام. تفصل بينها مداخن مصانع الأسمنت وتكرير السكر. يضخون غبار السم في سحب رمادية تنفرد كالغطاء السميك بين الأرض والسماء. تحجب الشمس واللون الأزرق والملائكة. سجن طرة بأسواره الحجرية السميكة العالية. يقف أعلاه جنود في سواد كالح. يتثاءبون وهم يرشفون الشاي وثقل رائحة المكان. أسلاك شائكة يتسرب من بينها ارتجاع أصوات تأتي من قلب العتمة ذات الجدران الزرقاء الكابية. تعطي دارية ظهرها ليمين الطريق. تنظر إلى انعكاس وجه أوزوريس على صفحة النيل هذا الصباح. يتهادى. فيدفع من فوقه ثقل

الغبار والحزن القديم. ينساب. وينساب داخل عروق دارية. فتنبض بالفرحة ويداها تتلمسان شكل الحروف فوق خشونة ورق الجريدة. تعرف أن «سيفًا» لا يراها لأنه منشغل بالطريق.

لو أنِّي أنسابُ مثل النهرِ الطيّبِ

أروي كلَّ شقوق الأرضِ العطشى

أصبحُ روحًا نهمةً

تحلمُ بالعشقِ

تتفتح لحروفِ الكلمةِ

تزرع حلمًا

يخفقُ بالبسمةِ

لو أنِّي...

- داري، بالنسبة لفكرة تعليم الأولاد

السباحة في فيلا هادية أنا مش موافق. بهدلة ومشاوير وبنزين عربية. وكل ده علشان تقابلي صاحبتك، وتقعدوا تتكلموا في الأدب والشعر وشعارات المساواة وحرية المرأة.

- وليه ماشوفش هادية؟

- مش على حساب الأولاد.

- وما لهم الأولاد يا سيف. ما هي الفكرة علشانهم أصلًا. مش مدرب خاص بيهم وبأولاد هادية أحسن من مدرب النادي المشغول بعشرين طفل؟

- إنتِ واخده الأولاد تلكيكة. كل اللي يهمك هوإشباع الوحش اللي بيعربد فيكِ. الرغبة إنك تِقْرِي كل شيء وتقابلي اللي يوافقوكِ في آرائك. ده إن ماكانوش همَّ اللي بيزرعوها في راسك. بتحبي صاحباتك علشان بيدّوكِ الإحساس إنك صح.

- وإيه الخطأ إني أقابل ناس يعمقوا من يقيني بآرائي؟

- هو ده الانغلاق نفسه. تنسجوا شرنقتكم علشان تستخبوا جواها، وتجرَّموا اللي مايتفقش معاكم.

- أنا تفكيري مش جامد. لو لقيت فكر تاني أقتنع به، ليه لأ. لكن لحد ده ما يحصل، أنا مقتنعة بآرائي وأفعالي.

- مش قلت لك. هو ده الجمود نفسه. صعب الحياة تستمر بنَّا وإنتِ مش عايزه تتغيري. الله يصبحك بالخير ياماما.

تنسحب دارية إلى داخلها. تلتف حول نفسها. داخل محارة الروح. تنزف دموعًا لا تبين. تصرخ بلا صوت. تعتصر قلبها يد قوية فلا يكاد الهواء يدخل رئتيها حتى يحتبس. لحظة واحدة قبل الاختناق، يخرج بصعوبة شديدة. مخلفًا ثقل حجر من أحجار السور السميك فوق صدرها. «أين ذهب

إحساسنا الحلو يا سيف؟».

***

أنا في جمع من الناس. حفل. أنظر بالمصادفة في مرآة المدخل. أرى وجهي مقسومًا نصفين بشكل طولي. كل جزء يحمل ملامح مختلفة عن الجزء الآخر. والجزءان وجه مفزع ليس أنا. لكني أعرف أن هذا أنا. الجانب الأيمن أشقر ذو حاجب رفيع مُنْثَنٍ لأعلى على شكل قوس. العين زجاجية النظرة. واسعة. الشفتان رفيعتان، تأخذان شكل تقوس الحاجب. الجانب الأيسر أسمر. ذو حاجب ثقيل. غامق. ذكريّ التكوين. العين صغيرة. ثاقبة. مترقبة. الفم غليظ الشفتين. لكنه جميل واضح التكوين. يعطيني هذا الجزء في المرآة نظرة مغناطيسية غريبة. لا أجد وقتًا لفهمها. فعليَّ أن أتفادى مواجهات غير مطلوبة محتمًا عليَّ أثناءها منح مبررات مقنعة عن السبب وراء هذا الوجه الغريب. عليَّ أن أختفي حتى لا يراني سيف. يأتي

ويراني وسط جمع من الناس أتحدث. أتظاهر أن لا شيء غريبًا يحدث. كأن وجهي المنقسم ليس موجودًا. كأنني لا أدرك أي تغير طرأ عليَّ.

الخوف يهصر قلبي.

* * *

يرتفع المد الرمادي. تربض سحب غبار الأسمنت فوق وجه نوت ذي العينين الزرقاوين الكَحْلاوَيْن. ينطفئ. تنسى دارية الصفصافة. لا تفتأ تداعب النافذة كعادتها رغم سكون الهواء المُشبَّع برطوبة صيفية. تُمسك فنجان القهوة. يداعبها أمل غامض أن تحملها رائحة البن والحبهان إلى ركن قصيٍّ من أركان الذاكرة. تمسك ورقتها البيضاء والقلم. تستحضر نفتيس:

- أتمنى لو أستطيع التخلص من هذا الإحساس بالذنب. يطبق على صدري. فلا أكاد أتنفس.

- سيحدث هذا بأسرع مما تتوقعين.

- كيف حالك؟

- لا بأس.

- لست راضية عني تمامًا.

- لا أستطيع أن أقول هذا بالضبط، أعرف أنك ترزحين تحت ضغوط. لكني لن أيأس. إن حدث هذا فلا مستقبل لروحك.

- أعرف. لا أريدك تيأسي. ما زلت أتذكر وعودي. سأستيقظ أكثر تبكيرًا حتى نلتقي. وربما أكتب.

- أثق في قدراتك. وستجدينني دوما هنا لمساندتك.

- أعرف. أتمنى لو تهدأ الجلبة في رأسي. سأقوم الآن لممارسة رياضتي، أتعرفين أنها جزء من طقوسي لك؟

- لا تخبريني بما أعلمه سلفًا. استمري.

- سأفعل.

وتبدأ دارية يومها بنشاط لا يتأثر في الأغلب بحالتها النفسية، هناك واجبات لا بد من أدائها وأعمال لابد من إنجازها. تحاول إنهاء أعمال المنزل وتصحيح أوراق التلاميذ؛ حتى تدَّخر ساعتين قبل عودة أمينة وجاسر من المدرسة. وقتٌ لها. تقرأ. تكتب. تعرف أن هذا الوقت هو الذي يرتفع بها. فتسمو فوق الأشياء. بعد أن تكتب تخبِّئ وريقاتها لتظهرها في وقت يكون سيف في حالة مزاجية جيدة، فيظهر وجهه القديم ولا يتجادلان:

من قال إن العصفورَ الصامتَ

يأكلُ ذهبًا

يأكلُ ياقوتًا ولآلئَ

يستحمُّ بنبيذٍ أبيضَ

ويغفو في هدوءٍ

على فراشٍ من ريشِ إخوتِهِ

خلف القضبانِ الحديدية

إن العصفورَ

يأكلُ

حرية؟

ينظر سيف في عينيها. فتقرأ أسئلة في عينيه. ماذا تخبئين هذه المرة؟ كتبًا! أوراقًا! أفكارًا! هذه الأشياء تأكل منكِ وأنتِ ملكٌ لهذه الأسرة. لماذا لا تقرئين علم نفس الطفل مثلما تقرئين أشعارًا وروايات؟ لماذا تتركينني دومًا أحس بعدم الأمان؟ لم تكن أمي يومًا مصدرًا لقلق ما. لم يكن يزاحمني فيها شيء آخر. وأنتِ لديك أشياءُ. تكررت نقاشات. تفضي دومًا إلى النهايات نفسها:

- داري. إنتِ محدودة القدرات يا حبيبتي. مش عايزه تحسّنِي من نفسك. يظهر إن أنا اللي لازم أقبل ضعفك وأتعايش معاه.

- كل اللي باعمله ده يا سيف ومحدودة القدرات. تنظيف. طبيخ. مدرسة. أولاد. تورتات. رياضة الأولاد وقراية القصص ليهم؟

- هو ده بالتحديد اللي بيخليني أشوفك محدودة القدرات. صاحب بالين كداب. لما بتشتغلي في المدرسة وتنظموا البتاع ده «النادي الثقافي» وغيره من الأفكار التطوعية الجريئة، مخك بيبقى مشغول حتى وانتِ في البيت.

- أنا مش مقصرة في أي حاجة يا سيف.

- لكن انتِ بتعملي الحاجات من غير روح يا داري. من غير قلب. بتتعاملي مع واجباتك على أنها مفروضات.

- إنتَ بتدوَّر على قالب محدد للسعادة. لو ما شفتهوش يبقى ده نقص فيَّ. مش هتشوف إني باحب شغل المطبخ إلَّا لو شفتني فيه نص يوم وأنا بأغني من كتر السعادة. ليه بتنسى إني ما كنتش هاعمل حلويات لو ما كنتش باحب ده؟

- مش أنا برضه اللي طلبت منك تتعلمي تعملي تورتات وشجعتك؟ هو أنا باعمل ده ليه؟ مش علشان تتعلمي. ويابخت مين بَكّاني وبَكَّى الناس عليَّ ولا ضحكني وضحَّك الناس عليَّ.

تنسحب دارية داخلها. تلتف حول نفسها. داخل محارة الروح. تبتلع الدموع قبل انهمارها. تبكي تراجع إحساسًا جميلًا كان بينها وبين وجه سيف القديم. تسترجع سطورًا من خطابات أبيها. تحوي روحه وروح أمها. والشغف بالمعرفة والحب والاكتمال. تعيد قراءة وريقة تركتها لها هادية في درج مكتبها بالمدرسة. «ما عرفتش أعمل حاجة بعد تلفونك يا دارية

وصوت الدموع لإنك «ناقحه» عليَّ قوي. كل ما أبص في المراية اللي بشوفك فيها ألاقي الجناحات تغطي عين الشمس. إوعي تتبطري على نعمة ربنا يابت.. جناحاتك جناحاتك، إن صنتي صانت وإن خنتي خانت. مش إنتي اللي بعتِّيلي الحدوتة دي وخلتيني أصدق إني فنانة وأعمل معارض للوحاتي؟ بوسي لي جاسر والهانم الصغيرة. وفيما عدا ذلك خَلِّي بالك على الجناحات».

خبأت دارية الورقة في مكتبها تحت الكتب. قبل أن تدخل غرفتها مرت على غرفة الأولاد. يضيئها ضوء خافت في الركن. تشد عليهما الغطاء. تقرأ لهما المعوذتين. تقبِّل جبهة أمينة. يجيئها جبران: «إن أولادكم ليسوا بأولادكم. إنهم أبناء وبنات أشواق الحياة لنفسها».عندما تقف أمام سرير جاسر، تستغرب على طرف لسانها طعم ملح ما. تدس أنفها في شعره. وتستنشق رائحة عرقه خلف الأذنين. «لماذا.. يا سيف؟».

* * *

أسمر جنوبي الملامح. الشعر أسود متوسط الطول. متروك بلا تمشيط في شكل تلقائي. شفاه غليظة مرسومة بدقة. عينان صغيرتان. سوداوان. نافذتان. تحت أهداب كثيفة منثنية لأعلى. وحاجبان ثقيلان. عندما أتأمل هذا الوجه عن قرب ينتابني إحساس بألفة قديمة. لقد رأيت هذه الملامح من قبل! أسفل السلم المؤدي إلى منزل أبي - في الحديقة - وقفنا نتحدث. أنجذب لعقله. يشحذ عقلي. حوار هادئ. لا ينتقص من طرف ليعطي الآخر. الحديث طويل. لا نَملّ. يعود أبي من سفره الطويل في تاكسي. يبدو منهكًا. يتحامل على نفسه ليمشي. أجري نحوه. أحتضنه. وأقوده إلى الداخل. أذهب إلى الحديقة لأودع الوجه الأسمر. آخذ بزمام المبادرة. أضغط على يده بحرارة:

- كم أنتَ إنسان مميز.

عندما أصحو أشعر بجناحيَّ مشرعين فوق تفاصيل اليوم. يدق قلبي بعنف عندما أستعيد شعوري في الحلم. يغلب عليه الارتياح العميق. أشعر برغبة أن أُدْخِل إلى قلب سيف بهجة قديمة. أخرج إلى الشرفة. أغازل صفصافتي وشجرة البانسيه ذات الزهور الأرجوانية. أفتح ذراعي وصدري لِـنَفَس طويل من هواء الصباح البكر ممزوج برائحة البن الساخن قبالتي. أخرجه ببطء شديد.

* * *

انقبض قلب دارية عندما دخلت غرفة النوم فوجدت سيفًا يقرأ أحد خطابات أبيها. عيناه تتابعان سطورًا تخترقه. ما بين الحزن والغضب قرأ بصوت مسموع: «إن توقف سيف عن القراءة هو عقبة في طريقك. شجعيه واقترحي عليه بعض الكتب. أثق في حكمتك. أعرف أن بإمكانك تقريبه من عالمك». تكتم عنف خوفها. تتظاهر بالهدوء وهي تقرأ ألم الغربة والانهزام في عيني

سيف.

- انتَ مستكتر عليَّ جوابات بابا يا سيف. الأوراق دي هي سندي بعد موت أمي.

- أنا مش فاهم هو متوقع تعملي إيه بكل الأوراق المصورة من الكتب والجرايد دي. هو مش عارف إن وراكي واجبات أسرتك. إلا ما بشوفه يعني يبعت لك وصفة أكلة حلوه ولَّا يوصيكِ على البيت والأولاد.

- هو عارف إني بَأدِّي واجباتي وبيفكرني بالحاجات اللي معنديش وقت كفاية ليها.

- ثم إنه بيحرضك على التمرد.

- بيحرضني على معرفة ذاتي. والتمسك بالمعرفة دي لما ألاقيها. إزاي تتصور أب يحرض بنته على هدم بيتها؟ كل ما في الأمر إنه بينصحني أشجعك على القراية علشان ندخل نفس العالم.

- أنا ما بحترمش المثقفين دول. فاكرين

نفسهم يعرفوا كل حاجة. مجرد كلام في الأدب والسياسة وشوية أبيات شعر بيرددوها زي البغبغانات، وتلاقيهم في أمور الحياة العملية ما يعرفوش حاجة. اتفرجي على واحد من دول لما عربيته تعطل. يضرب لخمة. لا هيعرف يصلحها. ولا الميكانيكي هيعمل له شغل مظبوط لإن شكله غشيم، الثقافة دي زي الدروشة. انغلاق العقل على جانب واحد نظري. والباقي صفر.

- يا سيف أنا مش باجرَّم وجهة نظرك في الحياة. ليه إنت بتعمل ده معايا؟

- ببساطة لإن وجهة نظرك غلط. عايزك تنفتحي على العالم يا دارية وإلا حياتنا هتبقى مستحيلة.

تبتلع دارية دموع العجز والفقد. كيف تفهم سيف ما يعنيه أبوها لها؟ ستكون كل كلمة خنجرًا موجهًا لسيف. يذكره أنه لا يمكنه أن يمنحها هذا الفهم. كيف تُفهمه أن هذا

الرجل البعيد قد غَيَّر مجرى حياتها مرات؟ عندما كانت في المدرسة الإعدادية، جاءته تشكو ضعف علاقاتها بزميلاتها. يبعدن عنها فينتهي بها الأمر إلى انعزال يتأكد يومًا بعد يوم.

- ليه ما توجهيش نظرك ليكِ إنتِ بدل ما توجهيه للناس؟

- ....

- يمكن العيب فيكِ إنتِ مش في زميلاتك.

- إزاي؟

- مش من المحتمل إنك إنتِ اللي بتبعدي. إنتي اللي بتستخبي ورا أسوار إزاز. يمكن خايفه من التحام مع حد تاني ممكن ينتهي بالفشل. افتكري دايما يا دارية كلام رسولك الكريم: «من أصلح جَوَّانيه، أصلح الله بَـرَّانيه».

أسقطت ذاكرة دارية هذا الحوار. ولم

تتذكره حتى بعد أن قصَّه أبوها عليها عندما عَبَّرت عن دهشتها إزاء تَحوُّل طرأ عليها بعد المرحلة الإعدادية. فأصبح لها صداقات وزاد قدر
تحصيلها الدراسي.

عندما سافر الأب شهورًا قبل التحاق دارية بالجامعة، توطدت العلاقة بينهما من خلال الخطابات. لم تكن مجرد أشواق وأخبار. لكن هذه الأوراق كانت تحمل رحيق روحه داخل الكلمات. داخل الحكايات والذكرى وقصاصات الجرائد وأبيات الشعر ونقد النقد الحديث وأضواء على لاو - تسي والقديس بيتر وابن الفارض، وأشياء أخرى كثيرة لم تستطع دارية في حينها ملاحقة كثافتها. لكن كانت تُجمِّعها مثلما يجمع البخيل القروش المتناثرة. يعرف أنها زاد اليوم الآتي.

كان سيف يشعر بالغضب من دارية ومنه. أخبرها مرارًا أنها لم تكن لتتحول من قطة وديعة إلى هذا الكائن المتنمر ذي العينين

الناريتين والصوت الجامد لو لم يكن لديها من يدفعها ويؤكد لها أنها على صواب. فينسيها وجودها الأول كزوجة وأم. وأخبرها عن حزنه لأنه مدفوع لأن يُـقلِّب في أوراقها ويرى ما بداخل الأدراج. لقد تربَّى على المبادئ، فكيف يفعل الآن أشياء ضد ما علمته أمه؟ لكن في بيته الأول لم تكن هناك أسرار داخل الأدراج. كان يريدها أن تفهم «الست مالهاش إلا بيتها». وكانت تعرف أنه غاضب من نفسه؛ لأنه لم يحقق حلمه بمشروع خاص به إلى جانب الوظيفة. كانت من البداية واثقة في قدراته ومتحمسة لأفكاره. حتى وهو يحاول دفعها بعيدًا عن عالمها، كانت تحاول دفعه إلى عالم خاص به. وكان يرمي عليها تبعة تأخره في التحقق لأن ذهنه مشغول بها، وقلق منها، وعليها.

* * *

السور الحجري السميك، تعلوه أسوار شائكة، يحيط بالمكان. أنا في زنزانة.

جدرانها كالحة بلا لون. شقوق ثعبانية سوداء. تتناثر فوقها آثار أكُف وأرواح مسحوقة. يجابهني بعنف صوت لا أرى صاحبه:

- أنت متهمة بالقتل العمد.

- قتلت من؟

- ....

- لكني لم أفعل. أقسم إني لم أفعل.

أرى صوري في الجرائد. مع زوجي والطفلين. هذا هو أنا في لحظات جميلة أمضيناها معًا على الشاطئ وفي عيد ميلاد أمينة الأول. لكن ما هو مكتوب عني قاسٍ. غير حقيقي. وموضوع في شكل تقريرٍ ثابت. «أنا بريئة». كيف أقتل بقلم رصاص؟ ألا يفهمون أن هذا غير جائز؟ أصرخ. لا أسمع صوتًا. تحتبس روحي بدموع غير مسكوبة. أكاد أنفجر من

ضغطها على جدران وجودي. كيف أفهمهم أن هذا ليس أنا؟ لا أحد يسمعني غير هواء الليل
الثقيل. والخواء.

ينتفض جسدي فوق السرير. تبقى عيناي مفتوحتين على ظلام ما قبل الفجر. وجه القمر مستور وراء سحابة غبار كثيفة. صوت تنفس سيف المنتظم جانبي لا يهدئني. لا أستطيع النوم مرة أخرى. أتلو لنفسي: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

أهدأ قليلًا. أقبل جبين سيف وأنا أذكر الحنان القديم.

أذهب لأطمئن على الأولاد في غرفتهم.

أشد عليهم الغطاء بعد أن أقَـبِّل رأسيهما. وأستنشق رائحة العرق البريء.

* * *

كان أمتع أوقات دارية في المدرسة هو وقت «النادي الثقافي». يأتيه فقط التلاميذ المهتمون لأنه حصة حرة. مساحة لإبداعات تتمرد على قيود المنهج والنظام والمفروضات. تحدثهم دارية عن ماعت، إلهة الحقيقة، تحمل ريشة فوق رأسها. هل هي ريشة الكتابة؟ وإيزيس إلهة الطبيعة والشعر والكتابة والسِّحْر. وجه الحياة الفائر بالقوة. ونفتيس. تُرى ما العلاقة بين كونها إلهة للكتابة ووجه اللبؤة؟ تقرأ معهم «مأساة الحلاج» وشعر و. ب ييتس وذي النون المصري. يقرءون لها ما كتبوه من شعر وقصة. ويُنظِّمون معارض للوحاتهم. تحدثهم عن عشق الحياة والحقيقة ومعنى الصدق. الصدق مع النفس أولا. معرفة الذات قبل معرفة العالم. تسترجع مع فرحة اندهاشهم

دهشتها الأولى. يُحلِّلون كتاباتهم. وتستمتع بنقدهم لآخر ما كتبته:

الجنيُّ الصغيرُ في الداخل

عفريتٌ ضئيلُ القامة.. كلّهُ شقاوة

يدقُّ.. يدقُّ.. يدقُّ

يدقُّ على القمقم من جوَّاه

يخدشُ جدرانَ الروح

يقفزُ.. يطيرُ.. يتواثبُ

يحلمُ.. ينزلقُ.. يقرأ أشعارًا

يحدِّثُ الشمسَ

يغازل القمر

يعشقُ الزجاجَ الملوَّنَ

وجدرانِ الجامع

مفتوحةٌ على السماء

نوافيرُ من رخام

ورائحة الخشب المتُشَقِّق

لا يملُّ معاكستي

يرمي في طريقي

ورقًا.. أقلامًا

وتصوروا..

يطلب مني أن أطْلِقَهُ

من سجن أبديٍّ

داخل جدران القمقم!

أنهت دارية تدريسها واليوم في بدايته.

فقررت أن تختلس زيارة إلى منزل هادية في المعادي قبل العودة إلى المنزل. تترك سيارتها خارج الحديقة الصغيرة المنمقة. ما إن تدلف من الباب الأرو اللامع إلى الصالة البسيطة الأنيقة حتى تأخذها قدماها إلى الشرفة الزجاجية الصغيرة التي اتخذتها هادية مرسمًا في الدور الثالث للمنزل. تخترقها شمس قوية وأخضر شجرة الجميز العتيقة بأعشاشها السرية. من يرَ نظام البيت فلا يتوقع أن الشرفة تحوي هذا القدر من الجنون. اللوحات وأنابيب الألوان والكتب على الأرفف وفوق الأرض. البراد الكهربائي بجوار الباليتة والأقلام الفحم ولفافات التوال. وبرطمانات الشاي والبن والسكر بجوار علب الرمل والحصى. المكان يكفي لجلوس شخصين فحسب. تفترش دارية الأرض فوق الكليم الملون بأخضر غيطان قرية مصرية.

- غاوية إنتِ قعدة الأرض. ما تيجي على الكرسي.

- ما انتِ عارفه يا هادية باحب الكركبة الإنسانية في مرسمك. فين اللوحة الجديدة؟

وضعت هادية فوق الحامل لوحة ٥٠*٧٠ زيت على توال. عصفور رمادي شاحب ذو ريشات بدرجات الأصفر. في ركن اللوحة قضبان حديدية مكسورة. والعصفور قد طار لتوه خارج القفص. يكسر هدوء ألوان اللوحة الباردة - الأزرق السماوي والرمادي - نقاط دماء ساخنة كبيرة تتساقط من الجناح الأيسر المكسور. فتلسع دارية. عينا العصفور مثبتتان على السماء الرائقة. والجناح الأيمن يرتفع.

- حزينة قوي يا هادية.

- الفن إيه غير صوت الوجع اللي جوانا.

أخذتا ترشفان القهوة وتنظران من خلال الزجاج على أعشاش العصافير داخل الجميزة. تُقطِّع هادية الخبز فُتاتًا تضعه

على حافة النافذة. وتتركه. لا تفتأ بعض العصافير تتوافد لالتقاطه. تلمح دارية سيارة سوداء على ناصية الشارع الهادئ. فتتوتر ملامحها. لحظات. وتدرك أنها ليست سيارة سيف، عندما تتبع هادية اتجاه نظراتها تفهم. وتدمع عينا دارية.

- هافضل عايشة بالخوف ده جوايا لحد إمتى؟!

وتعود دارية إلى المنزل فترى سيارة سيف أمام البناية. لقد عاد قبل موعده. يترك سيف مشاهدة التلفزيون ومحادثة أمه على التلفون:

- رحتي لهادية النهاردة الصبح؟

- لأ.... ليه؟

- واحد صاحبي شافك سايقه العربية ناحية بيتها.

- ماحصلش..

ترى في عينيه عدم التصديق. وهو، على حافة اليأس، يبحث عن طفولتها الأولى. تصمت. وقد تعلَّمت الخوف. يمسك سيف كتابًا مقلوبًا على وجهه. ينظر إلى العنوان.

- إيه ده؟

- «السياسة الجنسية» لكيت ميليت.

- كتاب إيه ده؟

- مش كتاب فاضح. ده بيناقش تاريخ الحركة النسائية في الغرب في الستينيات. حرب المرأة للحصول على حق التعليم والتصويت.

- هادية طبعًا ادّيتهولك.

- لأ. الدكتورة منى يحيى. إيه المشكلة؟

- إنتِ مش مدركة تأثير الكتب دي عليكِ. تقري كتاب وتتحولي ١٨٠ درجة كأنه غيَّر عقلك.

- بعض الكتب بتعمل كده.

- يبقى إنتِ إنسانة معندكيش شخصية. أي شخص أو كتاب ممكن يغيَّرك. ثم أنا مش فاهم ليه بتقلبي الكتب على ظهرها؟ بتلفت انتباهي أكتر كده.

- صدفة..

يخبط سيف كَفًّا بكف. «إنتِ مش طبيعية!». فتخطو دارية داخل محارة الروح. تلتف حول نفسها. تفتقد وجه سيف القديم. ولا تعرف طريقًا لاسترداده. تُخبئ آخر خطابات أبيها داخل ملابسها. تغلق عليها باب الحمام. ربما يصلح مكانًا لها. وتقرأ سطورًا تنفخ في صدرها هواء نقيًّا ينفض تراكم غبار الأسمنت من فوق وريقات صفصافة الروح.

بسم الله القوي العلي

القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير

أمازونتي الجميلة الجليلة

اشمخي برأسك حتى عنان السماء، ولا تغفلي عن أن ربك القوي لا يحب الضعفاء، املئي صدرك بسر الحياة، وتيقني أنك في حضرة الله الذي سوَّاك حرَّة، وأن هذه الحرية هي أمانته التي حملتها بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وقولي لمن يعترض الطريق: لا ولا ولا.

جَهُولٌ دعيٌّ من لا يعترف بالنعمة وينكرها، مجوَّفٌ ملؤه الهواء من يريد أن يضع الأغلال في أيدي وأعناق الآخرين. إنه يرهبك بكلمة الطلاق، وتشتت الأولاد، وهدم البيت. لكن لو أنك تظاهرت - مجرد تظاهر فقط - فأنا أعرف أنك وأنا معك لا نحب من ذلك شيئًا، لو أنك أظهرت عدم المبالاة لتراجع.

تدخل دارية غرفة الأولاد. تغطيهم. وتُقَبِّلهم. تمسّد شعر أمينة. تفاجئها غصة

في الحلق ورغرغة ملح الغد القريب في عينيها المتعبتين.

*****

أراني. وأراه. الوجه الأسمر نفسه. العينان السوداوان الثاقبتان الدافئتان. الجسد الطويل النحيل نفسه. الإحساس نفسه بألفة قديمة بعمر وجود العالم. نجلس على أرض الشارع في دائرة. أمام كنيسة المرعشلي في الزمالك (بالقرب من بيت أبَوَيَّ). وسط مجموعة كبيرة من الأصدقاء، بينهم أبي. يخيم على سكون المكان دفء المشاعر. ورائحة بخور الصندل تنبعث من جدران الكنيسة، وقبتها العالية ذات قلب أزرق. تحمل مسيحًا. ينسال من عينيه حزن ووعد. يقرر كلانا في اللحظة ذاتها، بلا كلمات، أن نأخذ جولة على الأقدام. نقف. ينظر إليَّ أبي مستأذنًا. أبي لا يمانع. على العكس. تبوح عيناه بلمعة ترحيب بالفكرة. يسعدني ذلك. يضع ذراعه اليمنى فوق كتفي. ألف ذراعي اليسرى حول خصره

النحيل. نسير بالخطوة نفسها في اتجاه كورنيش أبي الفدا. يلفني حضور روحه حولي. داخلي. أدفن رأسي في لحم رقبته البني. أستنشق دفأه. أشعر بخفقان تحليق جناحيَّ. عندما نصل إلى سور الكورنيش الحجري السميك. لا أرى الماء. لا أنظر إليه. أنا داخل اللحظة. ينظر إليَّ. ينطق الجملة الوحيدة التي أسمعها منه في كل أحلامي:

- أبوكِ كان دايمًا يقول لي: مينفعش أوصَّلِك إلا عن
طريق عقلك.

أصحو. ويبقى هذا الشعور المتطاير حولي كزغب العصفور الأبيض المتناثر لحظة التحامه بالشمس. أذهب إلى الشرفة وقت انبثاق الفجر من رحم العتمة. ألمس فروع الصفصافة. أقبِّل إحدى وريقاتها المتربة. تأتيني نفتيس. وأكتب.

* * *

كان صباحًا جميلًا. اخترقت شمس نهايات الصيف زجاج نوافذ غرفة المدرسات. أطلقت جوًّا من البهجة انعكس على ضحكاتهن ورائحة القهوة الساخنة يجهزنها في ركن الغرفة. كانت دارية، رغم الغيمات الرمادية في سماء الروح، تنسى - أو ربما تتناسى - الكثير عندما تجتمع معهن. خاصة هادية بجسدها النحيل. عيناها السوداوان الواسعتان تعكسان توثُّب روحها الألقة من خلف النظارة الطبية المستديرة. اقترحت مدام سهير تنظيم حفل لمتفوقي المدرسة لا يتخذ شكل جوائز بقدر ما يكون مساحة للإبداعات الحرة للتلاميذ وهيئة التدريس. شعر. قصة. أغنية. فن تشكيلي. بدأت ترتيبات الحفل تتضح مع كل اقتراح جديد. «ما شاء اللّه، وعندك وقت لحفلات كمان؟». هذا هو مدخل النقاش القادم.

عندما سُئلت، أعربت دارية عن حساسية الموقف بالنسبة لها. اندفعت مدام سهير بتلقائيتها:

- إزاي تستسلمي للوضع ده يا دارية؟ كتير مننا بياخدوا قرارات من النوع ده من غير الرجوع للأزواج في كل صغيرة وكبيرة.

اغتصبت دارية ضحكة حتى تُخَفِّف من حدة توترها إزاء نظرات الأخريات. في قلب ضحكتها، حدث شرخ في جدار السد، جرت دموع. وارتعش الفم المتأرجح بين الضحك والبكاء. ربتت هادية كتفها. قالت وهي تمد إليها منديلًا ورقيًّا:

- للوعي تمن يا دارية. للوعي تمن.

في المنزل دار النقاش المتوقع. تفرَّع من اعتراضات سيف على الحفل إلى حبها لنفسها، وهو يبحث في عينيها عن طفلة بعيدة وإحساس بالأمان يخبو:

- وليه ما أحبنيش؟

- دي أنانية.

- حب الذات مش معادل للأنانية. لو ما

قدرتش أحبني. لو ما عرفتش أكون نفسي وأشبع احتياجاتي الأساسية كإنسانة، مش هاقدر أدِّي الآخرين.

- لازم يكون عطائك مش مشروط. العطاء في حد ذاته إشباع. تدي وبالتالي تحسِّي بالرضا عن نفسك. مش العكس. الأم عطاء.

- ما أقدرش أدِّي الآخرين وأنا تعيسة. لما أقرا كتاب يغذيني، لما باكتب شعر، بأكون في أحسن حالاتي. وأدِّي. ليه بتسميها أنانية؟ الصدق مع النفس تنفيذ لإرادة ربنا فينا. من خلالنا.

- بتبتدي بنفسك كالعادة.أولوياتك مترتبة بشكل أناني. اليوم كام ساعة؟ تفتكري إزاي تكوني أم وزوجة ومدرسة وشاعرة، عايزه تغيَّر الكون في نفس اللحظة؟ صاحب بالين كذاب.
وصاحب ثلاثة..

- كدب. ليه بتتعامل مع مثل شعبي على

إنه نص مقدس. أحلامي مؤجلة يا سيف. دبلوم النقد الفني أجِّلتُه.. الأولاد مش باسيبهُم لك علشان أشوف مسرحية ولّا أحضر معرض أو ندوة. باحلم لما يكبروا أقدر أعمل ده.

- كل ما كبروا كل ما زادت مشاكلهم ومسئولياتهم لحد ما تبلع كل وقتك. كفاياك بقى انفصال عن الواقع. يظهر إن حياتنا مع بعض بقت مستحيلة.

رآها تنسحب إلى الشرفة. فأخبرها بنبرة حازمة أنه ينتظرها في الغرفة. ذهبت إليه بعد أن التفت حول نفسها. داخل محارة الروح. جلست تشاهد دارية. مصلوبة. فوق مسامير الألم. تنزلق بطول جسدها خطوط دم الاغتراب. وتتخثَّر. تسقط المحارة في هوة معتمة. ينقبض قلب دارية. ينسحب تجاه قلب المغناطيس. تنتظر لحظة الارتطام.

* * *

وجهه الأسمر. عيناه السوداوان العميقتان. قريبتان من وجهي. يخترقانني بنظرة طويلة. طويلة. عميقة. مستكشفة. متقبلة. عاشقة. لا تنتظر شيئًا أبعد من اكتمالها. أبعد من نفاذها إلى الأعماق النائمة وسط قيح الجروح. وثقل حجر الكآبة، قد بدأ يتزحزح من فوق الصدر. ألفتُ سواد هاتين العينين. كأنهما توءمي. نصفي يلتحم معي. فأصبح «أنا». لا يهمني وجود عينين ثاقبتين ترشقان ظهري. عندما يُقَبِّلني، أقبِّله. كأن هذا هو قدر اللحظة. تتلاقى شفاه روحينا. فأذهب.

أصحو. يحضرني الإحساس. فأبكي. تنسال الدموع رغمًا عني. ساعات. هل كان حلمًا؟ لِمَ إذن أشعر بحقيقة وجود يلفني. ويضمدني؟ تستمر بهجة التقائي به. يبقى اكتمال يقيني أنني «دارية» إنسانة جميلة. وما أسعى إليه ليس شرًّا. ينهمر ملح افتقادي هذا الاكتمال المستحيل. أرتمي في حضن نفتيس الدافئ. تُربِّت رأسي. تمسح ظهري بحركة

رقيقة بطيئة من أعلى لأسفل. وأكتب:

أيتها الجدرانُ القديمةُ

حائلة اللونِ

مشققة الأبوابِ والنوافذِ

يتسلَّقُكِ لبلابٌ وعنبٌ

أخضرُ ما يزالُ

أيَّـتُها الجدرانُ القديمةُ

دَثِّريني

ألقِ عليَّ عباءةَ أمي الصوفيةَ

طمئنيني أنَّ كلَّ شرورِ العالمِ

لا تطولني

هدهديني

بعيدًا عن أصابعَ

تتهمني

أني ساحرةٌ

غدا سيتمُّ حرقُها

في الميدانِ العام

وَسْطَ حشرجةِ هُتافاتِ العامة.

هل يدركُ أحدٌ منهم

أن طيني

سينصهر ذهبًا مسحورًا بالكلمةِ

أنَّ كلَّ شرارةٍ من ناري

ستبعثُ لهم

ألفَ ألفَ عنقاء؟

كفوفهن لم يزلْ بها

أصابعُ الطفلةِ الصغيرة

تتلمَّسُ أوراقَ الكتبِ

ملونةً وقديمة

تتحسَّسُ نورَ المعنى

كأنَّـها تعبثُ بمفاتيح الأقدار.

* * *

أخبرها سيف بنبرة غاضبة أنها لا تريد أن تَتَغيَّر. بل إنها تزداد عنادًا يومًا بعد يوم. كان يلوم نفسه على ما وصلت إليه. كان ليّنًا معها أكثر مما ينبغي. النتيجة أن عقلها يزداد انشغالًا بالكتب وكتابة الشعر ولوحات هادية. صحيح أنها لا تُقصِّر في واجباتها. لكن عقلها لم يصبح ملكًا للأسرة. لا بد أن يصلح ما أفسدته يداه. «يعدل الحال المايل» كما وعد أمه. دارية لن

تَتَشَبَّث بلعبتها إن ذاقت مرارة الحياة بدون أولادها:

- أنا عايز زوجة وبس.

- سيف بعد سنين جوازنا الطويلة وعشرتك معايا تفتكر إني ممكن أتراجع عن نشر أول ديوان؟

- أنا كنت فاكر الموضوع مجرد هواية. طلع إنك فاكره نفسك نجيب محفوظ جديد. الحياة ما تتسعش لكل ده. كان أملي...

- ما تأملش يا سيف. أنا باكلمك بأمانة. ما تأملش.

تمزقت الأوتار المشدودة تحت وطأة الإجراءات التي فرضها سيف على دارية. لا أصدقاء. لا تلفونات. لا نشر. في محاولة مستميتة أخيرة للإبقاء على قبضته على العلاقة المتصدعة. فتحت الدولاب وبدأت تقذف في الحقيبة بعض ملابسها. صرخت:

- أنا حاربت كل السنين اللي فاتت علشان شوية هوا أكتر من اللي بتتنفسه واحدة ست عادية. زوجة بس. جاي دلوقتي تحرمني حتى من الحد الأدنى ده. مش ممكن تقهر إنسان بالشكل ده يا سيف، وتفضل فاكر إنه هيحبك.

- إيه ده. إنتِ واخده قميصي الأصفر في هدومك؟

قذفت بالقميص خارج الحقيبة.

- أنا مش سايبالك الأولاد يا سيف. كل الموضوع إن أعصابي لازم ترتاح شوية. يمكن نقدر نتكلم.

- ماشي. ماشي. وهتيجي إمتى تاخدي كتبك؟

- .....

أغلق سيف الباب - بثقة من رمى آخر أوراق اللعبة - بعد أن سبقه جاسر وأمينة

إلى السيارة. لا تريد أن يراها الطفلان تحزم حقيبتها. تتفادى النظر إلى جدران أحبَّتها وكرهتها. عليها صور الفرح والدموع. تُبعد عينيها عن لعب أمينة وجاسر وملابسهما المتناثرة. «هل أدخلها الدولاب الآن؟!». الأحذية الصغيرة وكراسات المدرسة والورق الملون والصلصال. والصفصافة متيبسة في مكانها. لا تحرك ساكنًا. فوجئت بجرس الباب. أمينة وَجدَّتها قد عادتا لالتقاط بعض الأشياء. واجهتها أم سيف بعينين تتأرجحان بين التشفي والارتياح. وعينا أمينة تسألان.

- أمينة. أنا هاسيب البيت كام يوم وأقعد عند جدو. عندي شغل محتاجة أخَلَّصُه.

- فيه حد زَعَّلك يا ماما؟

وقفت بعنف أمام هدير الملح. وإن كانت لمعته قد بانت في عينيها:

- بابا زَعَّلك ياماما؟

.... -

* * *

إِلَهَةٌ بَيْضَاء

أدخلت دارية حقيبة ملابسها وصندوق كتبها في غرفة أمها. طلاء الحائط قديم. مُصفر. تآكل الجدار الملاصق لباب الغرفة من تأثير رطوبة السنوات وخُلوّ المنزل من صاحبته. قطع أثاث الغرفة تغطيها طبقات تراب العمر المنقضي. والحزن القديم يعشّش في الأركان. فوق صورة زفاف أمها وأبيها. تقبع بقايا الذكريات في الدولاب. فوق قطع الملابس. لم تزل رغم السنوات العشر تحتفظ برائحتها.

غريبة هي. هذه ليست غرفتها الواسعة ذات الأثاث العصري الأبيض. لون حلمها القديم. لكنها ليست غريبة تمامًا عن الغرفة التي احتضنتها سنوات استعذبت فيها الهروب من حجرتها، والدخول في دفء سرير أمها ذي اللحاف الستان الوردي. يزيّنه كورنيش رقيق على الحافة. تَلْبَدُ في عبق الجلد الناعم. تحتضن الجسد

الضئيل من الخلف، وتنام بعمق براءة الأيام الأولى.

وضعت دارية ملابسها في الدولاب إلى جانب ملابس أمها. وضعت الكتب القليلة التي استطاعت حملها على التسريحة. أسفل المرآة، وفوق أرض الغرفة. كان نومها في الأسابيع الأولى مؤرقًا. تصحو من النوم في منتصف الليل. تحاول تَـبَـيُّـن المكان. تلمس قطع الأثاث البني كأنها تتأكد أن تَغَـيُّـرَ موقعها ليس هلوسة. أن هذا المكان لا يحوي غرفة ملاصقة لغرفتها. بها سريران. واحد لأمينة والآخر لجاسر. تصحو من النوم على صوت جاسر: «ما.. مي ي ي». وعندما تقفز من سريرها لتعطيه جرعة الماء تدرك ألَّا أحد هناك. لا شيء إلا ظلام الليلة. ووحدتها. تفتح عينيها في الصباح. مثقلة الجفنين. السادسة إلا الربع. موعد استيقاظ الطفلين للمدرسة. ترى جدتهم تُحضِّر لهما السندوتشات. تصحب جاسر إلى بوابة البناية. تقف معه حتى يركب أوتوبيس المدرسة. هل

ستتحمل سنّها المتقدمة إرهاق يوم يعج بمشاكل طفلين إلى جانب أعباء أسرتها الأساسية؟ هل يتساءل جاسر وأمينة عن سبب عدم وجودها معهما؟ هل يشعر جاسر بالغيرة من أحمد الذي تصحبه أمه كل صباح؟ هل يلبس الآن الجاكيت البنفسجي فوق الزي المدرسي؟ تشعر برأسها قد أصبح محطة قطار فقدت نظامها فتداخلت القطارات مع بعضها. وتناثرت أشلاء العمر الفائت وسط الجلبة. تقع عيناها على إحدى القصاصات على الحائط أمام سريرها. «قصيدة حب» لريتشارد بروتيجان:

جميلٌ جدًّا

أن تستيقظَ في الصباح

وحيدًا تمامًا

دون أن يكونَ عليكَ أن تقولَ لشخصٍ مَا

إنّك تحبُّهُ

في حين أنّـكَ لم تَعُدْ

تحبه.

تفتح نافذة الغرفة المطلة على حديقة طفولتها. تُسوِّرها الأشجار الخضراء الصغيرة. ذات زهور صفراء خشنة. شجرة الياسمين في المدخل. بلا زهور. شاخت شجرة النارنج. وذهبت شجرة البرتقال. وبقيت شجرة الليمون المواجهة لنافذتها تتحدى تجاعيد الزمن رغم رعشة الشتاء القاسية. لطالما لعبت مع أصحابها تحتها. وأكلوا ليمونها المُرَّ. ولطالما جلست على حِجْر أمها تحت شمس المكان. تغلق عينيها. تستنشق نَفَسًا طويلًا من الهواء المُندَّى بزهور الذكرى.

تخرجه في زفير طويل

فتهدأ الجلبة قليلًا

تستنشق نَفَسًا آخر.

* * *

شعرها كثيف. أسود. بلون سماء الليلة. يتماوج بشكل مجنون فوق الجبهة والذراعين. عضلات الجسد الأسمر الطويل متهدلة تحت رداء روماني الطراز. ذي شحوب رمادي. مشقوق بشكل طولي من الأطراف. يكشف عن قدمين حافيتين. مغبرتين بتراب معركة انتهت لتوها. في العينين لمعة زجاجية تخترق الأشياء، ولا تراها. تعكس لون العدم ولهيب النيران في طريقها إلى الانطفاء بعد أن أتت على جسر خشبي قديم عن يمينها. تموج أسفله مياه بنية ثقيلة. تتوسطها نافورة لا يبين هيكلها. تدفع بمياه قانية الحمرة إلى أعلى. يصل رذاذها إلى بقايا اللهب. يطقطق. ويعود للاشتعال.

يقف الجسد الذاهل متحاملًا على نفسه حتى لا يسقط. تلتقط الذراع النازفة فرع

شجرة نحيلًا. خشن الأشواك. تغمسه في نار الجسر. تقذف به جسرًا آخر. متهالكًا. عن يسارها. لا يربطه بالشاطئ إلا حبلان سميكان. تُمسك به النيران. تنفرج شفتاها عن ابتسامة مأخوذة. صدرها يعلو ويهبط بعنف. تنحدر فوق الوجه المتحجر قطرات شفافة. تلمع مع انعكاس اشتعال النيران في خشب الجسر. يأكلِ نفسه. تنهار على الأرض المبتلة. تأخذ نَفَسًا. تخرجه ببطء شديد.

أصحو على انسيال قطرات متسارعة على وجنتيَّ. لا أستطيع الهروب من ملامح وجهها. يطاردني أينما ذهبت. أفتح نافذتي لشجرة الليمون. ربما تخفف من حزني. أتذكر صفصافتي. هناك. تحت طبقات غبار الفراق. فيزداد عنف نشيجي.

* * *

ممتلئة حتى الحافة بالدموع. تهرب بها بعيدًا عن أبيها الذي عاد من سفره الطويل

ليتلقفها في حضنه المتعب. تهرب حتى لا تسمعه يرجوها الرجوع إلى سيف؛ من أجل دفعة أخرى لطاحونة الهواء القديمة. رغم الألم، بدأت دارية تطل برأسها خارج محارة الروح. تستنشق فرحًا خفيفًا لمذاق حياة أخرى. تعلم أن الزمن سيخفف من قسوة الجرح. سيفسح مكانًا لحياة أرحب ستزور فيها أماكنها. وسترى من تحبهم دون لوم أو تقريع بسبب وبدون. كانت تذهب مع هادية إلى المسارح والسينما ومعارض الفن التشكيلي. هناك يستمتع جزء منها بما تراه. بينما يلومها الجزء الآخر على متعة كان ثمنها غاليًا. «هل كان يستحق؟!». تنظر إلى ساعتها باستمرار كأنه يجب أن تعود للمنزل سريعًا لأداء بعض الواجبات. أو ربما لمجرد التواجد داخل جدران ألفتها رغم كرهها لها. لكنها تتذكر أن الجدران في بيت أبيها هواء. أنه لا يلقي عليها بأي أعباء أو يطالبها بأي مسئوليات. «عايزك تحافظي على دارية وبس». ربما رغم ثقته في قوتها، كان يحاول درء شبح الانهيار عنها مثل آخرين

تخوفوا من قدرتها، على احتمال الحياة بعيدًا عن أمينة وجاسر. تطاردها عيونهما أينما ذهبت. تسمع صوتهما في ضحكات أطفال تقابلهم في الطريق. تحاصرها أسئلة عن أحوالهما. آلامهما. الإجابات التي يتلقيانها من جدتهما وأبيهما عندما يسألان عن أمهما. لم ترهما لشهر كامل لأن التلفون الذي قطع سيف أسلاكه قبل رحيلها ليستكمل ترويضها قد عاد إلى حالته الأولى. لكن لا أحد يرد. كان الألم يحاصرها. وكان بُرْعُم اليقين ينمو داخلها. يهمس إليها أنها سوف تعبر البرزخ إلى ضفة أخرى تنتظر وصولها.

كانت ليلة باردة. تسمرت دارية في ظلام المسرح، في المقعد الملاصق لهادية. تتابع «طقوس الإشارات والتحولات» لسعد الله ونوس. مؤمنة، زوجة نقيب الأشراف، تخلع عنها النقاب. تُطَلِّق حياتها الأولى التي اختارها لها الآخرون لتصبح الماسة. غانية لكنها حرة. غانية تمزق الأقنعة من فوق وجوه الجميع بمن فيهم قاسم

المفتي، وجه السلطة، وأبوها. وجه المجتمع الكاذب. غانية إنسانة تحلم أن تصبح كالبحر لا يفسد ماؤه. كالعصفور لا يحدّ كونه حدود. كالريح، كالمطر، كالإعصار، كالروح لا يُكبِّلها جسد. عندما استل أخوها الخنجر وطعنها، معلنًا رجولته، كانت الماسة قد أكدت أنها حكاية والحكاية لا تموت. وكان جسد دارية قد بدأ يهتز بنشيج مكتوم. تحاول إغلاق بوابات السد الحجري علَّه يحجز هدير الملح. امتدت إلى يدها يد هادية في الظلام. تضغط عليها برفق لم يهدئ من نشيجها. بل زاده. مالت دارية بوجهها لأسفل. وطبعت على يد هادية قبلة مالحة.

* * *

أرى عدة كبارٍ بعضها فوق بعض. أنصاف كبارٍ لأن البناء لم يتم بعد. كل منها ضيق للغاية. ومرتفع عن الآخر وعن الأرض بشكل مخيف. أحاول الصعود. بل أصعد بالفعل. قلبي يدق بعنف فزع السقوط في

أي لحظة. الفواصل الحديدية في جسم الكوبري متباعدة. تجعل أجزاءه المبتورة تبدو كالورق المقوى. يهتز الكوبري الورق تحت قدميَّ المرتعشتين. أقرر الهبوط. لكني لا أتحرك إلى الأمام. سأهبط بظهري. أعرف أنها هناك. عندما أصل إلى أقرب كوبري إلى الأرض، رغم المسافة البعيدة، أترك جسدي للهواء. أهوي. تتلقفني تطمئنني. أهبط إلى ما أظنه دورًا أرضيًّا في قصر كبير ذي طابع أثري. لكنَّ ساكنيه أناس عاديون. أعرف
لاحقًا أن هذا ليس دورًا أرضيًّا. بل دور أول.
أتنفس.

أصحو على حركة صدري صعودًا وهبوطًا. أتلو ([illegible]). أعيد التلاوة وعيناي مسلّطتان على نصف قمر تخترق فضته نافذتي المفتوحة. رغم كل شيء فأنا الآن أستطيع النوم وشيش النافذة مفتوح على المساء. وجه نوت، الأم المقدَّسة. لماذا كان سيف يرى ذلك دليلًا على كوني غريبة الأطوار. متى ترسل إليَّ

بِصَكِّ عتقي يا سيف؟!

«البايع خسران يا دارية. إنت اللي رافضة. يبقى تتنازلي».

* * *

أثناء الشهور الأولى من حياتها الجديدة، كانت دارية تعاني من حالة فقدان وزن. جسدها خفيف. لا تشده إلى الأرض قوة جاذبية السنين الماضية بكل عذاباتها ومسئولياتها الجميلة. فجأة تلاشت قوة المغناطيس الذي طالما دار وجودها حول محوره. الآن تملك الوقت كله في يديها. لكنها ملتفة حول نفسها في الوضع الجنيني القديم نفسه. حتى بعد أن تحطمت القشرة العليا لمحارة الروح. تغلق عليها باب حجرتها. تجلس أمام الطاولة البُنيَّـة الصغيرة التي جعلت منها مكتبًا. تنظر إلى السقف طويلًا. أنفاسها مضطربة. كأنها مازالت تلهث هربًا من شيء ما. أو ربما وراء شيء. تنظر بإمعان

إلى كتب دبلوم النقد الفني المرتبة بعناية فوق الأرض. حلمها القديم. عندما تفتح أحدها لا تفهم شيئًا. تعيد القراءة. عندما تيأس من تَـبَـيُّن المعنى، تغلق الكتاب. تعيد النظر إلى السقف المُصْفَرّ. تحاصرها اتهامات سيف. حراب مُصْلتة حول رأسها. «مالكيش وجود خارج الأسرة. إنت بتكتبي الشعر تحت تأثير أزمة. علشان تهربي من الواقع». تضعف حين تفكر أنها لم تكتب سطرًا طوال الأشهر الأربعة الماضية. لم تشعر بالقدرة على الكتابة. إذا كانت وجهة نظر سيف صحيحة، فهل راهنت بكل شيء على لا شيء؟ إذا كانت لا تملك موهبة الكتابة، ألم يكن أجدر بها أن تستسلم للحياة التي حاول سيف فرضها عليها. مجرد زوجة متفانية. تعيش من أجل البيت والأولاد. وكفى؟ لكن دارية تقاوم ضعفها. تُـكَرِّر على نفسها بصوت مسموع أن حربها لم تكن من أجل وجودها كشاعرة فحسب، بل كإنسانة لها الحق في اختيار ما تقرأ وما تكتب ومن تصادق. هل أدارت نفتيس لها ظهرها فنفت عنها سبب

وجودها؟

في خِضَمِّ أمواج الألم وعدم اليقين، ترتمي دارية في أحضان حجارة الأسوار القديمة. تذهب إلى قاهرة المعز. تنهل من دفئها في ليالي الشتاء بعد أن تنام الجلبة. فتبدأ الحوار مع المساجد والأسبلة والبيوت القديمة بمشربياتها المتربة. تحجب وراءها أصوات الحياة وأشواق العيون الكحيلة لحريم الزمن الفائت. هناك تنسى أسوار سجن طرة الحجرية تعلوها طبقات السلك الشائك والجنود.

كانت ليلة حُبلى بريح شتوية تمتزج بدفء صحبة الروح. تجولت مع هادية في ميدان الحسين. وقرأتا له الفاتحة. مَرَّتا من حواري خان الخليلي الضيقة. هادئة بعد إغلاق المحال ونوم أهلها إثر صخب اليوم الطويل. اخترقتا أكوام القمامة ونفايات النهار. دخلتا يمينًا إلى شارع المعز. هدأت خطواتهما مع اقتراب المساجد. الناصر بن قلاوون ملاصق لجامع برقوق وعن يمينهما

السبيل القديم وجامع الأقمر. وقفتا أمام الواجهات الحجرية العالية. يكسوها الرخام الملوَّن المرسوم. المآذن الرشيقة مبنية من الحجر المنحوت. ذات قاعدات مُثمَّنة أو أسطوانية مزينة بشرفات. تسحب عيونهما إلى قلب قبة السماء. وعينا روحيهما تريان في الداخل العوارض الخشبية تحمل سقوفًا منقوشة بالرسوم الزيتية المذهبة. جميلة رغم طبقات التراب. تذهب بهما إلى زمن آخر كانت تضاء فيه هذه البنايات بالقناديل النحاسية والبرونزية. وبمشكاوات الزجاج مطلية بالمينا. الساحة رخامية مفتوحة على السماء. تتوسطها ميضأة تعلوها مظلة من الخشب البُنّي المفرغ. وتعود العيون العاشقة إلى الشبابيك النحاسية المفرغة بأشكال هندسية ذات مصاريع من الخشب المخروط المزخرف. لم تكن الجوامع مظلمة تماما. تسربت شعاعات ضوء خفيفة من وراء شقوق خشب نوافذ قلاوون. تُرى ماذا ومَنْ وراءها؟ أحست دارية بنسمات باردة محمّلة بآثار الصندل

والمسك تغسل رئتيها من طبقات غبار الأسمنت وبعض الأسى. هنا فقط يمكنها أن تتنفس بهذا العمق الجميل. رفعت وجهها إلى السماء عندما شهقت هادية:

- دارية القمر بدر.

ونظر القمر إليهما بوجه مستدير باسِم. تحوطه من الجانبين مئذنتا برقوق. وفي الإطار الداخلي تتناثر شظايا الماس. تضفي على المشهد اكتماً الّا مستحيلاً. وقفتا مُسَمَّرَتَيْن مَسْحُورَتَيْنِ أمام نداءٍ غامضٍ لإِلهةٍ تمدّهما بحياة غزيرة تجري في العروق من قديم. تدلي إليهما بوصيتها الأولى من الوصايا الألف. كانت أولى هبات نفتيس بعد شهور من الجفاف:

لا تسيري في ظلّ جدارٍ آمنٍ

لا تحني الرأسَ المتوهجَ بالأفكارِ

لا تخرسي اللِّسان

لا تخفي الروحَ الصعلوكةَ

تحت نقابٍ أسود قاتم

لا تقتلي الطفلَ العابثَ بالأحلامْ

حطّمي أصنامَ الوَهْمِ

اقتحمي معبدَ آمون

لَطِّخِي الأعمدةَ بدمكِ المنتهكِ الحار

اخترقي قُدْسَ الأقداسْ

مزِّقيِ وَصَايَاهمْ

اسحقي القَرابينَ

انزعي قِنَاعَ الإيمانِ

من فوق وَجْهِ الكاهِنْ

نكِّسي أعلامَ الْقُوَّةِ المزعومة

ارفعي راياتِ الحبّ

مغموسًا في شمس الحرية

انزعي ملابِسَكِ

اقفزي في ماءِ النَّهْرِ

بحثًا عن تابوتكِ يا إيزيس

ارشقي روحَكِ

سهمًا في قَلْبِ الكَوْن

كوني.

* * *

ساحة ممتدة في الخلاء. يبدو من لمعة أرضها أنها بحيرة. لكنني أمشي فيها مع أبي. الماء يكاد يغطي أقدامنا. ينكسر سكون المكان عندما يُنبِّهني إلى شيء غريب يحدث في الساحة. بعض الناس

يتساقطون موتى. كأنه طاعون يستشري. يربط ذهني بين ما يحدث لهم وما يمكن أن يحدث لي. أتذكر أنني أعالج نفسي منذ أيام من تلوث بالمعدة. يتزايد عدد الجثث في المكان العريض. شبه عرايا. لونهم أسمر إفريقي. منقلبون على وجوههم المغروزة في الطمي. يتملكني الذعر من اقتراب الطاعون. أحاول الفرار.

أراني في منزلي القديم مع سيف والطفلين. أدرك فجأة أن الساعة قد قاربت التاسعة ولابد أن آخذ أمينة وجاسر إلى المدرسة، في حين قد عدت لتوّي من المشوار الطويل نفسه. أتشاجر مع سيف حول السيارات. فأنا أقود السيارة الصغيرة المتهالكة ومعي الطفلان. وهو يحتفظ لنفسه بالسيارة الجديدة. أبكي بيأس من ليس بيده حيلة. يستيقظ طفلاي على صوت بكائي.

أستيقظ على صوت بكائي. تندفع روحي إلى غرفة الطفلين. أجلس على الطرف

الأيمن لسرير أمينة. أقرأ لها المعوذتين بينما أمَسِّدُ شعرها. فتغمض عينيها في هدوء. «وأنا كمان يا مامي. اقري لي قرآن». أنتقل إلى سرير جاسر. أفعل نفس الشيء. بينما تُربِّت أمي ظهري. تمسحه بحركة بطيئة ناعمة. من أعلى لأسفل. تقرأ لي آية الكرسي.

ينسال الملح الساخن فوق وجهي.

* * *

عندما رفع سيف الحظر الذي فرضه على التلفون وتلقي مكالمة دارية، أخبرها عن قراره أن ترى الطفلين في «منزلهما» تحت إشرافه. كان صعبًا عليها أن تدخل منزلها ضيفة ثقيلة. أن ترى أمينة وجاسر في وجوده فيتحول حديثها معهما إلى شجار بينها وبين سيف. كان صعبًا أن تستسلم لقراراته المفروضة عليها بعد أن كانت قد أوضحت قبل تركها المنزل أن الطفلين في حضانتها، وأنها تحتاج فترة تبعد عنه حتى

يستطيعا أن يتحدثا بهدوء. لكن لحظة خروجها من المنزل هي لحظة فرض هيمنته على الموقف. بيده أن يمنح أويمنع. بيده أن يحجب عنها الحرية وطفليها. فكرت كثيرًا أن تأخذهما معها إلى شقة أبيها الصغيرة في الدور الأرضي لإحدى بنايات الزمالك القديمة. أقسم سيف ألا يمنحها ما يُمَكِّنها من الاحتفاظ بهما. ومن أين لهَا بدخلها الصغير - الذي لا يعتمد مبدأ الدروس الخاصة - أن تكفل لهما الحياة التي تريدها لهما؟ كانت يداها مغلولتين.

اعتصرت ألمها علَّه يجف. ذهبت. لا تعرف إن كانت ترتعش من برودة الهواء، أم من وجع المواجهة. فتحت أمينة الباب وارتمت في حضنها. تلاها جاسر. احتضنتهما وهي تحاول أن تغلق بوابات السد أمام فيضان الملح. يضغط بشدة على جدران الروح. فهمت من استقبال الطفلين لها أن سيف قد كذب عندما أكد لها المرة تلو المرة أنهما لا يفتقدانها. إنما لا يذكرانها من الأساس. وهي، في ضعفها، صدقته. مازال يبتز

مشاعرها. يغذي نار آلمها حتى تأكلها. فتعود إليه صاغرة. وتنفذ كل ما يطلب. «الست مالهاش إلا بيتها».

لم يكن سيف بالمنزل. ترك الساحة لأمه التي لم تخرج لاستقبال دارية. انهمك جاسر في تركيب اللعبة التي أحضرتها دارية. لم يكن يستطيع بسنواته الستّ أن يشترك في حديث أخته ذات السنوات العشر مع أمه. بدأت أمينة الحديث بإصرارها على رجوع أمها إلى المنزل.

- لازم أتكلم مع بابا يا أمينة.

- في إيه؟

- في حياتنا.

- إيه المشكلة يا ماما؟

- إحنا مش شبه بعض. كل واحد فينا شايف الدنيا غير التاني.

- إيه اللي زَعّل بابا منك؟

- هو شايف إني لازم أكون أمّ أحسن من كده. لازم أدِّي أكتر.

- إنت يا ماما؟! إزاي؟! إنت بتدينا كل حاجة. ما ينفعش أكتر.

- هو ده رأيه. لما يكون فيه كراسة فوق الترابيزة. أنا شايفة إنها صفرا وحدّ تاني شايفها بُنّي. أفضل أحاول أقنعه. ويفضل يحاول يقنعني. لحد ما ييجي وقت حَدّ مِنّنا يزهق. يتعب.

- وجدّو، وتيته، موافقين؟

- أيوه.

- إزاي؟ هُمّا ما يعرفوكيش. ما عاشوش معاكِ. ما يعرفوش إنتِ بتدِّينا إيه. الاختيار لينا مش ليهم.

- كل إنسان بيعمل اللي يشوفه صح، وهو

مش قاصد يؤذي حد.

- برضه مش فاهمة.

- أمينة. عمرك حَسّيتِ إن ما عندكيش ماما؟

- أبدًا.

- بابا مش عايز غير إني أهتم بالبيت.

- معقول عايزك تسيبي الشغل؟!

- مش بالبساطة دي. لكن دايمًا يقارن بين الشغل والبيت. ويطلب أكتر. أمينة. اسمعيني. أنا عندي حاجات كتير عايزه أديهالك وانتِ بتكبري. عايزاكِ تحبي الكتب وترسمي وترقصي باليه. بابا كمان إنسان كويس. بيحبك. وعنده حاجات عايز يِديهالِك. وجدتك زيِّنا. كلنا هندّيكِ. وانتِ تختاري. ولما ييجي اليوم اللي تكمل فيه كل أجزاء الصورة. زي الصور اللغز اللي بتحبي تركبيها. لما يقع كل جزء في مكانه وتبقى

صورة كاملة جميلة اسمها أمينة، مش من حق أي إنسان - حتى احنا - إنه يختارلك. أويطلب منك تتغيَّري وتكوني حد تاني. فاهماني يا أمينة؟ ما حدش يختارلك. افتكري كلامي كويس. أنا ما تهمنيش دارية دلوقتِ. نفسي أمينة تكون أمينة مع نفسها.

- أيوه يا مامي. لكن ده معناه إنك مش هتعيشي معانا تاني؟

- مش عارفه يا حبيبتي. كل اللي أقدر أقوله إني باحبكم. وبابا بيحبكم. هتلاقيني معاكي وحواليكي. صحيح مش في نفس البيت. لكني هاكون لك صاحبة تدوري عليها علشان تحكي لها.

كانت دموع دارية قد سالت أثناء الحوار. توقف جاسر عن اللعب. وبدأ يشاهد ما يحدث. في عينيه صمت يفهم. ويبوح. أخذت دارية أمينة في حضنها وهي تردد بنشيج مسموع:

- أنا آسفة يا أمينة. آسفة يا حبيبتي. آسفة.

- وأنا كمان يا مامي.

ملتصقتان. بكتا معًا.

وعينا نوت مُغْرَوْرَقَتانِ برَذاذٍ منذر.

* * *

بعد شهور الغياب الطويلة، يعود إليَّ وجهي الأسمر. غريبًا. مألوفًا. نتكلم. وأعطي. أسير بجانبه في خجلٍ ممزوجٍ بارتياح عميق. يملؤني. نعبر ميدانًا واسعًا تتوسطه نافورة كبيرة مستديرة. لا تتوقف عن التدفق. تغمر الميدان أضواء صفراء. قوية. أعرف هذا الميدان. قريب من منزل أبي.

أجدنا في مسرح. بين مقعدي ومقعده يجلس شخص لا أعرفه. ضخم الجثة. ثقيل الظل. آخِذٌ على عاتقه مهمة تشتيت

تركيزنا. يبدو صديقي غير سعيد. لا يلبث أن يترك القاعة. يسير إلى الخارج. عيناي تتابعانه. لكني لا أتحرك. لا أراه ثانية.

وحدي في المسرح نفسه. يأتي إلى حضني أسد وليد. فروه أبيض نظيف. عيناه الخضراوان رائعتان. شفّافتان كالزجاج. آخذه في حضني. أربت عليه. يتضح بعدها بقليل أنه أسد لعبة كسبه جاسر من عربة كارُّو محملة باللعب. بطريقة ما يسترجع صاحب العربة الأسد ويعطي جاسر فأرًا صغيرًا مصنوعًا بطريقة رديئة من قماش قديم. أفكر للحظة في تجاهل الأمر. لكن.. لا. سآخذ حق ابني. أجري في الشارع لألحق بالعربة. أصيح في الرجل: «كيف تأخذون لعبة كسبها ابني بعد ربع ساعة من فوزه بها؟». يرتبك. يأخذ جاسر لدورٍ علوي في محل لعب. يعود طفلي سعيدًا وهو يحمل سيارة بوليس لعبة. من الواضح أن الرجل قد تَخَلَّص من الأسد. أعطاه لآخر. وعلى ابني أن يكتفي باللعبة المعدن الجديدة. أصيح بغضب: «أنتم

تنتهكونه. تعلمونه بالتالي أول دروس انتهاك الآخرين».

*** * ***

وقفت دارية بمايوه أسود عاري الكتفين. ملتصق بكل تفاصيل الجسد الأسمر الطويل. جورب خفيف أسود طويل وحذاء رياضي أبيض سميك. شعرها معقوف لأعلى. وحول كل من رسغيها ترتدي ثقلًا يزن نصف الكيلو. نظرت إلى دارية باستغراب في المرايا العريضة التي تبطن جدران الصالة الواسعة. كان جسدها ثقيلًا. ومرتعشًا قليلًا من لسعة البرد الشتوي. تحركه بصعوبة مع موسيقى الجاز الإيقاعية اللاهثة. تكاد تصم أذنيها. لكنها تدفع إلى جسدها بنبض حياة خفيف. ودفء ما. تنظر إلى الأجساد الممشوقة حولها بإعجاب ممزوج بتحدٍّ يدفع إلى صدرها أنفاسًا جديدة كلما خارت قواها. ويعلو صوت «أنجيل»:

- تحكمي. تحكمي في جسدك. يمكنك أن تفعلي كل شيء. عليك فقط أن تصدقي.

ويتحرك جسد دارية. ترقص مع الإيقاع. يمينًا ويسارًا. ترقص. لأعلى. لأسفل. تقفز في الهواء. تفرد ساقيها لأعلى. تثنيهما إلى الجنب. ترقص. وتركل. تدفع أشباحًا تحاصرها. تشد ثقلها إلى الأرض. ترقص. تركل نفايات أفكار. تطرحها أرضًا. تهبط فوقها. تسحقها. ترقص وتقفز وتركل. فينسال نهر العرق الساخن على وجه دارية، وذراعيها، وساقيها، إلى الأرض. يغسلها. يجرف معه الغضب وأشباح الأسى.

ثم.. تهدأ حِدَّة الموسيقى. تخف نبرتها. فتُبطئ حركة الجسد المشحون. وترقص دارية بهدوء. ونعومة. تنساب الموسيقى. جدول ماء عذب. يمحو الإحساس بالجسد. فيبقى فقط شعورها بنشر جناحيها مع النغمات. والانصهار. تَتَشَّرب مسامها الموسيقى حتى وهي خارج حلقة

الأمازونات. وهي تدب أرض الشارع بساقين قويتين قد برزت عضلاتهما واختفت ترهلات السنين. «تحكمي. تحكمي. عليك فقط أن تصدقي».

عندما انتهت دارية من ساعة الإيروبكس في الحادية عشرة والنصف صباحًا، غيرت ملابسها المبتلة. أسرعت إلى دار النشر لتتسلم البروفة الأولى لديوانها. أمسكت بين يديها الأوراق وقد بدأت السطور المختزنـة في أدراج مكتبها أعوامًا تأخذ شكل كتاب. ستعود إلى المنزل مشيًا. علَّ الحركة المنتظمة القوية تهدئ من هدير البهجة فيبطئ قلبها من سرعة دقاته. مشت بمحاذاة نيل الجزيرة بالزمالك. نسمات الشتاء تطير بخصلاتها البنية الطويلة. تريد رؤية كورنيش أبي الفدا تحديدًا في تلك اللحظة الممتلئة. مرت من أمام كنيسة المرعشلي. ابتسمت عندما تذكرت سرَّهُما القديم. حلقة الأصدقاء. وأباها. وجهها الأسمر. ووجه أوزوريس على صفحة النيل لم يَبنْ. عندما أعطت

ظهرها للكنيسة متجهة إلى الكورنيش، أحست بالذراع النحيفة لوجه أحلامها الأسمر تحيطها برفق. ودارية تنظر إلى الأمام. يتطاير حولها شعور كزَغَب العصفور الأبيض لحظة التحامه بالشمس. يَمُدّان الخطى. لا يتبادلان حديثًا. لكن صمتها فرحٌ بالجنين الراقد في ملف أخضر في يدها اليمنى. تصل إلى سور الكورنيش الحجري المترب. تجلس. تنظر إلى الماء. تأتيها نفتيس. وتبتهجان:

خمرُ الهواء المعتَّقِ

يدورُ برأسي

يطيرُ بها

يطير

إلى آفاقِ حُلمي الممكنِ

إلى فضاءاتٍ مغمورةٍ

بنجماتِ عشقي المستحيل.

خمرُ الهواءِ المعتَّقِ

ينزعُ عني أغلالي الصَّدِئة

يهدم سجن السنواتِ الممتلئة

مِلحًا.. قَلَقًا.. رَهْبَـة

يغمرُ رأسي

داخل فُقّاعات مياهِ البحر

بين رمال الشاطئ

وصخور الجبل النافذ

في صَدْر سماء الليل

في قلب الكون النابض

بسكون تراتيل الفجر.

خَمرُ الهواء المعّتق

يربت على رأسي

يمسحُ جسدي

بيديهِ الدافئتينِ

ينضو عني الوهمَ

يطيح برأس الماضي

تشرقُ الرغبةُ في أركانِ الرُّوح.

عنقاء

أنشرُ أجنحتي

فوق ضلوعِ الكون

ثملة

أحتضنُ الفَضَاءَ

وأطيرُ.

* * *

أنا في المنزل القديم لزيارة الطفلين. تنبئني أمينة بخبر خطبة أبيها. لا أشعر بالغيرة. غضب شديد فحسب لأنه مستأثر بالقرار كعادته. أفكر لماذا أعلم بهذا الخبر من ابنتي وليس من سيف مباشرة؟ كان يجب أن نتفق فيما بيننا ماذا نقول للطفلين. كيف نمهد لهما هذه المرحلة من حياتهما؟ أنقبض عندما أفكر في أن أمينة وجاسر سيعيشان مع زوجة أب. كيف تعاملهما؟ هل ستحبهما؟ أليس من العدل أن يعيشا معي عندئذ؟ هل سيمنحني سيف مكانًا لهما؟ ألف سؤال يدق في رأسي كمطارق حديدية. تحدثني أمه على الهاتف. تبكي. تخبرني بوِد أنه لا بد من وقف هذه الزيجة «ملعون أبو الكتابة.هي اللي فرقت بينكم». أصرخ فيها أن الكتابة لا علاقة لها بما حدث بيننا. أبكي «لماذا طعنني في وجودي؟». أسمع صوت

الزغاريد. هل يتم كل شيء بهذه السرعة. دون اعتبار لوجودي؟ أمينة تنضم إلى مجموعة المهنئين.

«لماذا طعنني في وجودي؟».

أصحو على غيمات رمادية تُغَبِّر وجه نوت. تبدو شجرة الليمون متعبة. متدلية الأغصان. متى ترسل إِلَيَّ بِصكِّ عتقي يا سيف؟ «البايع خسران يا دارية».

* * *

تلقفت دارية جاسر في حضنها فور خروجه من بوابة البناية. والتحم هو معها في حضن لا يقل قوة عن حضنها. تلبس نظارتها الشمسية حتى لا يرى عينيها:

- فين أمينة يا جاسر؟

- مع تيتة.. يمكن.. مش عارف..

تتذكر المرات التي راوغتها فيها أمينة ولم

تأتِ. تتذكر لومها لنفسها عندما عبرت لطفلتها في إحدى المرات عن غضبها من موقفها. وقررت منذ ذلك الحين ألا تجذبها من الذراع الأخرى. سيُفهمها الزمن،إن شاء.

- عاوز تروح فين يا حبيبي؟

- الملاهي والنادي والماتش وماكدونالدز وأشتري لعبة.

ضحكت دارية. وذهبا سَوِيًّا إلى الملاهي. قفز جاسر في حوض الكُرَاتِ البلاستيك الملونة. بدأ يتشقلب. يغوص برأسه أسفل الكُرَاتِ فلا يبين منه إلا قدماه النحيفتان. يهزهما بحركة دائرية. وهي تضحك. وهو يضحك. تحمله. فيلف حول رقبتها ذراعيه ويقبلها. من المراجيح إلى الساقية إلى الأخطبوط.

- لازم تركبي معايا الدودة.

وتركب دارية الدودة. تضحك. ويضحك.

في المنزل احتضن جاسر جده. ثم أخذ في اللعب بالكرة مرة، وبالعجلة مرة أخرى. قالبا أثاث البيت. ودارية تتغاضى عما لم تكن لتتغاضى عنه من قبل.

- عايز شيكولاتة.

كان لابد أن ترد دارية بحزم:

- جاسر إنت أكلت تلاتة شيكولاتة النهارده. كفاية.

تركته وذهبت إلى غرفة المعيشة. عندما لم تسمع صوت اعتراض عادت إلى حيث تركته. وجدته في ظلام المطبخ بجانب الثلاجة. متكوّرًا على الأرض في صمت مشحون. ورأسه مخبأ بين ساقيه المثنيتين لأعلى. اندفعت إليه. رفعته إلى حضنها. رفع رأسه الصغير وفي عينيه يندفع الملح:

- أنا عايزك تروَّحي معايا يا مامي.

انهارت سدودها:

- صعب يا جاسر. مش هينفع دلوقت. صعب يا حبيب ماما.

وبكيا وهما ملتصقان.

دخل أبوها غرفتها ليلًا. في يده صينية الشاي وكوبان صغيران. لم يعلق على تَوَرُّمِ جَفنيْها:

- إيه أخبار دبلوم النقد الفني؟

- رائع يا بابا. مستمتعة بكل المواد. من نظريات النقد الأدبي للموسيقى وعلم الجمال ولغة السينما وتاريخ الحضارات القديمة. ابتديت أفهم لغة الجسد وتعبيرات الوش في الباليه. العلاقة بين عضلات جسم الراقص أو الراقصة ولون الملابس وتصميمها. بين تشكيل المجموعات وحركتها، وحِدَّة نبرة الموسيقى أو

نعومتها. أكتر شيء باستمتع بيه هو الجزء العملي. بالذات زيارة المعارض. فيه لوحات باقف قدامها وما أفهمش أي حاجة. لكن فيه
معارض تانية...

- تيجي نكمل كلامنا في الحسين؟

- بابا. الساعة تلاتة الصبح!

- وماله. حتى نشوف الشروق هناك.

تعشق دارية القاهرة ليلًا. خاصة في الشتاء. تشعر في كل زيارة أنها تراها للمرة الأولى. الشوارع هادئة. مسالمة. تشعر في هذا الوقت أنها تملك المدينة. أن المدينة تتملَّكها. قلعة الجبل بأسوارها الحجرية. منيعة. شامخة. يلتف سورها حول مسجد «محمد علي» بقبابه الدائرية ومئذنتيه. يحتضن البئر الطاهرة وينير أعلى المدينة. صلاح سالم. هذا الشارع الثعباني الطويل. يفصل بين هوة الموت بمقابرها

السحيقة.يحوطها الجبل ويسكنها الأحياء. وقاهرة المعز حيث يسير الزمن على قدمين. يتحدى الزمن.

عندما تركا السيارة، احتضنت يد أبيها الكبيرة ذات العروق النافرة يدها الأصغر. فذهبت رعشة برد الليلة. هبطا من فوق هضبة الدَرَّاسة في اتجاه الجامع الأزهر. تنتصب حوله أعمدة الترميمات الخشبية وتلال الرمال والزلط والطوب. هنا رائحة البخور. النارجيلة. الشاي المعطَّر بالنعناع. وذراعا المكان. اتجها يسارًا إلى شارعِ الغورية الضيق. نائمًا في ذلك الوقت. بانَ لهما «باب زويلة». تعلو برجيه مئذنتا مسجد «المؤيد شيخ». الآن إلى يمينهما. صعدا السلم الرئيسي المزدوج. وقفا أمام البابِ الشاهق. مكسوًّا برخام ملون. مزخرفًا بالمقرنصات. مصراعاه من خشب مصفح بالنحاس على شكل أطباق نجمية. محفورة. وبارزة. جلسا على أعلى درجات السلم المترب. وجهاهما شطر باب زويلة العتيق.

- عارف يا بابا. مش قادره أنسى لوحه لنجوى المصري. ست مقلوبة. عريانة. بطنها مفتوح. أحشاءها خارجها. اللوحة غرقانة في لون أزرق. كابوس. ست منتهكة لكن لسه في عينيها بريق حياة هيفضل شايل طعم القتل. لما اتكلمت مع الفنانة عرفت إنها رسمت اللوحة بعد ما قَرِتْ خبر من الأخبار الكثيرة المنشورة بشبهة حياد عن نساء البوسنة.

- عارفة يا دارية. كل يوم بيتأكد لي إن مصر ستّ شديدة. عَفِيَّـة ووَلَّادة. رغم كل ظروفنا الصعبة كشعب، لازم تلاقي ناس بيجري في عروقهم دم عبد الله النديم وسعد زغلول وفؤاد حداد وفلاحين دنشواي وهدى شعراوي. هتلاقي دايما مبدعات ومبدعين بيصرخوا ضد الظلم بقلم أو ريشة أو عود. الطريق صعب. لكن لو الواحد منّـِنَا عارف إنه صعب ومستعد يدفع ثمنه الغالي يبقى لسه فيه أمل. أنا عارف إن فيه أمل.

قفزت دارية فوق الدرج الرخامي. ظهرها إلى باب المسجد العملاق. وقد ارتدى وجهها جدية ممثل اعتلى المسرح لتوه. نشرت ذراعيها إلى الجانبين. هواء الشتاء يطير بشعرها إلى الوراء والقنديل على باب الجامع يلقي على ملامحها بهالة من الغموض المشحون استحضرت أمل دنقل:

المجدُ للشيطان مَعْبُود الرياحْ

من قال «لا» في وَجْه من قَالوا «نعمْ»

من علَّم الإنسانَ تمزيقَ العدمْ

من قَالَ «لا» فلم يمُتْ

وظلَّ روحًا أبديةَ الألمْ!

* * *

أهوي. أهوي. أهوي من مكان عالٍ. قلبي يدق بعنف. أصرخ بلا صوت. أذكِّر نفسي «ليس إلا حلمًا». لكن خوفي لا يذهب.

وانسحاب قلبي في اتجاه جاذبية الأرض لا يتوقف. ليس إلا حلمًا. ليس إلا...

أنتفض من نومي. العرق يسيل رغم قرصة البرد. أجلس على سريري في الظلام. أنظر من خلال الشيش المفتوح على الفضاء. نوت قد ابتلعت القمر وكل النجوم.

متى يحين وقت الولادة يا نوت؟

متى... ياسيف؟

* * *

بعد ساعات طويلة أمضاها في الحديث مع أبيها. ظلت دارية خلالها في غرفتها. منقبضة. وعصبية. خرجت إليه:

- إنت هنا ليه يا سيف؟ سمعتك بتكرر للمرة المليون شكوتك مني، اللي لحد اللحظة دي مش فاهماها.

ارتعشت نبرة صوته وجفناه وهو يحاول أن

يخفي انكسارًا ما في مواجهة حدة عينيها:

- شايف يا عمي. شايف بتكلمني إزاي. شايف نبرة صوتها والطريقة اللي قاعدة بيها حاطة رجل على رجل. طبعًا إنت سعيد بيها.

- كلمني أنا يا سيف. إنت هنا علشان تشتكيني ولَّا تصالحني؟ وإزاي عايز تصالحني وانت شايف إني مقصرة، عقلي على قدي، مشغولة، باجري ورا النداهة... إلخ إلخ. إنت كائن ملتبس. إزاي تتوقع مني إني أغفر مش بس غسيل مخ السنين الطويلة وانت بتحاول تقنعني إني غبية، محدودة القدرات، ولكن كمان اللي عملتُه بعد ما سبت البيت من منع الأولاد عني.

حاول أن يبدو متمالكًا لنفسه. وإن لم تذهب الدهشة:

- مش فاهم إزاي تبيعي بالسهولة دي. إزاي أمّ تتحمل تعيش من غير أولادها؟

قالت وعلى طرف لسانها سخرية ومرارة:

- لسه شايف الحياة قوالب ومعادلات يا سيف. أم بدون أولادها تساوي صفرًا. أنا هاقولها لك قدام أبويا: إنت أعصابك اتحملت إنك تاخد جسمي بدون موافقتي. قبلت تنام مع جثة يا سيف.

- وهو فيه اغتصاب في الجواز؟ أنا سألت شيخ..

- مين اللي نام معاكِ. الشيخ ولَّا أنا؟

- عايزه إيه يا دارية؟

- حريتي وأولادي.

- ومش هتفكري ترجعي؟

- هتديني حق العصمة؟

- اتجننت يا دارية. إزاي أشوفني راجل بعدها؟

- أنا دقت طعم القهر يا سيف. لو انت شايف إنه قهر لك أنا مش هاخليك تعمل حاجة مناقضة لرجولتك. كنت عايزه أعرف قد إيه اتغيرت. وعرفت.

- اطلبي حاجة معقولة.

- اسمع، إنت لعبت بيَّ قمار. وخسرت. وأنا مش مسئولة عن تعويضك الخسارة.

- أنا ما اخسرش أبدًا يا دارية. هتندمي. والأولاد دول تنسي إنك ممكن تاخديهم. إنت عارفه إنك ماتقدريش تعيشيهم بمرتبك التعبان. وإن عرفت تاخديهم بأي شكل هاكون أنا وهما تاني يوم بره مصر.

أسرعت دارية إلى حجرتها وقد تحجرت الدموع في عينيها. وقعت عيناها على لوحة هادية. العصفور الرمادي. والقضبان المكسورة في ركن اللوحة. جناحه الأيسر يُنقِّط دماء ساخنة. لكن الجناح الأيمن يرتفع. وعيناه على صفاء السماء الناعمة.

نظرت دارية مليًّا إلى عيني اللوحة. مسحت دموعها.

* * *

أجري في متاهة من الأشجار الكثيفة. تجرح قدميَّ أوراق الشجر الخشنة وحبات الحصى. أجري وقد نشرت ذراعي أمامي حتى لا أرتطم بشيء. المكان مظلم. يخترق سقف الأشجار بعض الأشعة الفضية. أشعر بالضياع. هل سأصل؟ كيف؟ أسمع صوت اهتزاز فروع شجرة بجانبي. أتوقَّف على الفور. ثعبان؟ قبل أن أرفع رأسي، يهبط على بعد مني جسد رجل نحيل أسمر. يرتدي رداءً فاتح اللون يصل إلى ما بعد الركبة بقليل وحزامًا لامعًا بخطوط ملونة تنبعث من نقطة مركزية. كأن الرداء يلقي عليه ضوءًا ما. فـوق وجهه قناع طائر ذي منقار طويل معقوف. يدق قلبي بُعْنف تَـرَقُّب الآتي. نقف. ينظر كلانا إلى الآخر. يهبط عليَّ نوع من الهدوء. أنظر إلى عينيه اللامعتين داخل القناع.

«هل رأيتهما من قبل؟!». يشير إلى السماء. فأرفع رأسي. أراه طائرًا يخفق بجناحيه إلى أعلى. يمينًا. أسلك الاتجاه نفسه.

يتأكد شعوري أنني على صواب عندما أرى لافتة فاتحة اللون. عليها رموز لا أفهمها. تشبه حروفًا هيروغليفية. تدب قدماي على الأرض الخشنة. وورق الشجر الجاف. أقطع بعض فروع الأشجار القريبة من يدي. أنظفها من الأوراق لتكون درعي لحظة الخطر. يتوالى ظهور اللافتات. ألمح دبًّا بنيًّا ضخمًا. أسير بثقة رغم عنف دقات قلبي. ينفتح الأفق أمامي على مجرى مائي. على الضفة الأخرى أرى جبل المقطم بأحجاره الكبيرة وانحناءاته الحادة. يرقد أسفله في سكون جامع «عمر بن الفارض» بنوافذه الحديدية الصغيرة. مضيئة من الداخل. أقفز في الماء. تتلاشى برودته الحادة مع ضربات يديَّ وقدميَّ القويتين. جسدي ثقيل. لم أسبح منذ زمن بعيد. لكن قدرتي تدهشني. تتسارع

أنفاسي مع المجهود المفاجئ. أشعر بقواي قد بدأت تخور. «تحكمي. تحكمي. عليك فقط أن تصدقي». ألمحه على الضفة الأخرى. ما زال بعيدًا. يشجعني على العوم. تزداد ضربات ذراعيَّ للماء قوة. أدفع الماء بقدميَّ. أندفع إلى الأمام. عندما أصل إلى طمي الضفة، يمد يده إليَّ. يرفعني. قطرات الماء تتساقط من وجهي وجسدي. صدري مازال يعلو ويهبط. أعرف أن عليَّ الآن صعود الجبل.

أصـحو من نومي نشطة. كأني قد انتهيت لتوي من ساعة إيروبكس كاملة. تَنَفُّسِي عميق. منتظم. أفتح صدري لرائحة زهر الليمون قبالة نافذة غرفة أمي. أقرأ الفاتحة لسيدي عمر بن الفارض.

* * *

مُهْرَة

وقفت دارية أمام ضابط الجوازات. قلبها يدق بعنف. «سيادتك ممنوعة من السفر بأمر الزوج». تتوقع سيناريو المهانة . وترتعش. لكن:

- ألمانيا. سياحة؟

- لأ . بعثة دراسية.

- مع السلامة يا فندم.

تتنفس الصعداء. يتبخر الخوف. تاركًا مكانًا لدقات قلب مُترقِّب للغد. ما زال يحَلِّق مع مئذنة الحسين الأيوبية ورائحة بخور المكان وانعكاسات أضوائه في فجر يوم السفر. مازال يحتوي بين ثناياه أربع عيون عسلية صغيرة تقطر أسئلة وشوقًا. ودارية تهدهدهما وتمسد شعريهما وتشم رقبتيهما البضتين. ارتمى الجسد المشدود

على مقعد الطائرة الذي احتضن دارية أربع ساعات ونصف الساعة. ما بين الغفوة والاستيقاظ. على حافة حلم مُبْهَم. يرفض الإفصاح.

عندما وطأت قدماها مطار فرانكفورت، كان قلبها يدق بعنف غرابة المكان والتجربة. لم تكن المرة الأولى التي تسافر فيها إلى الخارج. لكنها كانت المرة الأولى التي تسافر وسيف ليس مستوطنًا داخلها بكل ممنوعاته ومحاذيره. بكل الخوف الذي زرعه داخلها من الناس المتربصين بها. متأهبون للغدر في أي لحظة. كانت هذه المرة «دارية» فحسب. دافئة، طيبة. محبة. مبتسمة لكل الوجوه. مفتوحة للعالم. استقبلتها الدكتورة «سابينا» المشرفة على بحثها للأشهر الثلاثة القادمة. لم تندهش من حرارة ترحيبها، فقد كانت دارية على علم بمدى تحمسها لمشروع البحث الذي تقدمت به لجامعة «ماينز»، وكان هذا سببًا رئيسيًّا في حصولها على هذه المنحة. أعربت سابينا عن دهشة

خفيفة:

- ما تخيلتكيش بالشكل ده.

- كنتِ متوقعة عباية سودا خارجة من باب الخيمة.

- مش بالظبط. أنا عارفة حاجات كتير عن مصر المعاصرة. ودرست مادة مصريات في الجامعة. بس انتِ مختلفة عن صورة رسمتها لك.

انتابتهما نوبة ضحك أدفأتهما قليلًا وهما تدوران حول نفسيهما بحثًا عن سيارة سابينا التي نسيت في أي طابق قد تركتها في المطار. في السيارة، بدأت دارية تسترخي قليلًا. عيناها تلتهمان أخضر الغابات على جانبيَّ الطريق العريض المفتوح. «هل رأيتها من قبل؟!». ساعة وعشر دقائق تفصل بين المطار و«جرمارسايم» مكان الإقامة. كان الجو مشبعًا برطوبة منذرة. لم تلبث أن أسفرت

عن رذاذ خفيف غطى زجاج السيارة الأمامي وهي تنهب الطريق بسرعة مطمئنة. عرفت دارية أن لسابينا طفلين. «سباستيان» في الحادية عشرة، و«تيمو» في السابعة.

- أكبر شوية من أمينة وجاسر.

- مين بيرْعاهم وانْتِ مسافرة؟

عندما سمعت سابينا ملخصًا سريعًا لقصة دارية. أعربت عن دهشتها للمرة الثانية:

- في ألمانيا الأولاد بيبقوا مع الأم عند الطلاق.

- الوضع كده برضه في مصر. القانون يحكم باحتفاظ الأم بأطفالها لحد انتهاء سن الحضانة. قصتي وضع فردي مش أكتر.

أدارت دارية وجهها بعيدًا حتى لا تلمح سابينا لمعة الماء في عينيها. فتحت زجاج السيارة على نداوة الهواء الخريفي تبدد

غبار الوحشة. تابعت عيناها بشغف اختفاء أشجار الغابات لتحل محلها وديان مفتوحة. خضراء. وصفراء. ملتحمة مع المدى. تغمضهما على الصورة الممتدة كأنها تمتصها. تفتحهما مرة أخرى
وسابينا تشير:

- مزارع الكروم.

ترتفع الأرض وتنبسط. تتراص عليها في خطوط خضراء متوازية منتظمة أشجار الكروم. يتداخل معها أحمر أسقف بيوت القرى البيضاء الصغيرة. متناثرة بطول ألمانيا وعرضها. «هل رائحة الهواء المغسول هذه؟ هل هذا الجمال المستحيل ممكن؟».

اصطحبت سابينا دارية إلى مسكنها داخل الجامعة. لم يكن غرفة في بيوت الطلبة كما توقعت. شقة صغيرة وحيدة في مبنى كان قلعة حربية على الراين في حرب ألمانيا المشتعلة مع فرنسا. وبعد انتهاء

الحرب حَوَّلَوه إلى معهد للفنون. الشقة هي أول ما يقابل من يدخل من باب الحديقة. إلى اليسار. بجوارها مراسم الطلبة وقاعات فيديو وغرف موسيقى. تحتل مكاتب الأساتذة الدور العلوي. تم إضافة مبنيين في وسط الحديقة الواسعة. لا تستطيع العين الإلمام بحدود سورها. مبنى كبير. حديث الطراز. يبدو بجسده الزجاجي الأصم كأنه العنصر الوحيد الشاذ في المكان العتيق. وفي طرف الحديقة الغربي كشك خشبي. حضانة لأطفال الأساتذة والطلاب. تأملت دارية الحديقة. تلال خضراء صغيرة تحتضن مقاعد خشبية وساحات نصف دائرية تشبه المسرح الروماني. بلاطات صغيرة رمادية ينبت بينها العشب وزهور بيضاء دقيقة الحجم. تنفتح مناطق الجلوس على الشمس بلا حاجب من الأشجار العملاقة الملاصقة لسور الحديقة الحديدي الأسود.

صعدت دارية خمسة سلالم حجرية متآكلة الحواف حتى باب شقتها. فتحت سابينا

الباب الزجاجي الطويل على غرفة واسعة. قليلة الأثاث. أرضها خشب بني لامع. السقف قبة عالية. لليسار سرير صغير لفرد واحد. مكتبة كبيرة عليها بعض الفازات الصغيرة وآلة كاتبة. ويمينًا دولاب يغطي معظم الحائط. ويلاصق بابًا داخليًّا يؤدي إلى مطبخ صغير وحمام. وفي نهاية عمق الغرفة المستطيلة توجد كنبة خشبية تدور مع الحائط. أمامها مائدة طعام. تركتها سابينا بعد أن أوصتها أن تشتري ما تحتاجه من السوبر ماركت قبل إغلاقه في السادسة. قبل أن تفرغ حقيبتها كتبت لهادية على ظهر كارت بوستال: «ألمانيا لوحة باهرة عايزه رشتك». وكتبت لأبيها: «أنا فوق قمة جبل البهجة. ما أخبار أمينة وجاسر؟». نامت دارية خمس ساعات. من الثالثة بعد الظهر حتى الثامنة.

*** * ***

أنا في منزلي القديم. صفصافتي تداعب

النافذة، لا أعيرها اهتمامًا. عندما أفتح الباب لأخرج صندوق القمامة تراني جارتنا هناء. ترحب بي بفرحة: «خلاص بقى رجعت؟». أرد عليها: «لسه شوية». تقول بتشجيع: «يلّا بقى ارجعي». لها ابنة جميلة أراها لأول مرة. تحتضنني بقوة ترحاب.

داخل المنزل ألعب مع جاسر. يقلب صندوق اللعب على الأرض. ويحضر لي مجلد قصصه. يختار كالعادة قصة لم نقرأها من قبل. يذهب إلى الحمام. ثم «ما.. مي ي ي»، كما كان يفعل. أنا سعيدة أنه يدعوني أنا وليس جدته لأقوم بتنظيفه. تسرع إليه الخادمة. لكني أقوم بالمهمة. أعود إلى غرفة المعيشة. سيف راقد على مرتبة على الأرض. يدعوني. أنظر إليه.أقترب بنصف حماس. نخلع ملابسنا بطريقة آلية. فتدخل الفتيات للعب الإيروبكس. يجري ليغلق الباب مرتبكًا. محاولًا تغطية جسده بفوطة. أظل على الأرض لفترة. ثم ألف حولي ملاءة وأذهب إلى غرفة النوم حيث أجد أمه متضررة من

وجودي. ألبس ملابسي. وأترك المنزل.

أفتح عيني على مكان جديد، مألوف لي. اللون الأخضر وغروب الشمس الخريفية يخترقان زجاج الباب. يغسلان كآبتي. أتنفس بعمق لم أعرفه منذ وقت بعيد. أشتاق لأمينة وجاسر ولأشجار الغابات. يليها انفتاح المدى على أفق الروح البعيد. الثامنة. أقفز من السرير لألحق بموعد أول درس إيروبكس في «جرمارسايم».

* * *

تأقلمت دارية سريعًا مع جو ألمانيا. والمكان. كأنه كان دومًا لها. تستيقظ في السادسة. ترتدي شورتًا وتي شيرت أبيض وحذاء الرياضة. تجري مع استدارة سور الحديقة الداخلي. خمس دورات. تنهل رئتاها من ندى الصباح الطازج ولون الأشجار الخضراء. ذات زهور بنفسجية وصفراء. تهتز أوراقها مع أولى نسمات الخريف. فتتساقط من أطرافها بللورات

الماء. «مسكينة صفصافتي. مازلت ترزحين تحت طبقات غبار الأسمنت. والوحدة». رذاذ الماء الفاتر يزيح العرق وبعض الأسى. تشرب قهوتها. مصنوعة من بن محمص تفوح منه رائحة حَبَّهان الأزهر ودفء الذكريات. صورة أمينة وجاسر على رف المكتبة. تلتقي عيناها بهما في اشتياق لاتستطيع ترويضه.

عندما تسلمت جدولًا يضم مواعيد وأماكن المعارض المقامة في الأشهر الثلاثة القادمة، وضعت خطًّا أحمر تحت تاريخ معرضين، «لي تسو» من الصين و«أحمد نور الدين» من مصر. أكدت لسابينا:

- المعرضين دول بيصبوا في مجال اهتمامي. حجم ونوعية الفن العِرْقي في ألمانيا.

- جميل إن يوم ١٨ هيكون يوم سبت علشان أقدر أروح معاك، الطريق طويل نسبيًّا.

كانت الساعة قد قاربت السادسة مساء. وضعت دارية حقيبة أوراقها على ظهرها وأسرعت خطوتها. مرت في مشوارها اليومي على متحف بقايا الحرب ذي البناية الحمراء الضخمة. أمام بوابته يقف مدفعان قديمان. تليه البيوت الصغيرة. بيضاء. أنيقة. ساكنة تمامًا. تغرقها أطياف الزهور. أرجوانية. بيضاء. عندما وصلت إلى الراين، وضعت حقيبتها على الدكة الخشبية المغروزة في الطمي الجاف. افترشت الأرض. وجهها للماء وظهرها للشمس الراحلة. تعكس على عشب الأرض ووجه الماء ظلالًا برتقالية ذاهبة. عرفت من اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماها هذه الأرض أن هذا هو مكانها. بين الشمس وانسياب أوزوريس فوق صفحة الماء. أغمضت عينيها. تسمع في سكون المكان صوت الصمت. ونفتيس تغرقها بأطياف فراشات الحلم:

بعد مُرِّ السنين الطّوال

بعد صَدَأ القضبان

أنظرُ من ورائها

بعينين تقطران ذنبًا. خَجَلًا

رهبةً

إلى سراب أحلامي

أتجهُ إليه حثيثًا

بينما

لا يفتأ يراوغُني

جسدي ينزُّ

ملح اليأس العنيد.

أجدُني فَجْأةً

في قلبِ الغاباتِ البرية

على حافَة نهر رقراقٍ

فوق مروج الحلم الخضراء.

أجدُني

أطاردُ فراشات حلمي

واحدةً

تلْوَ الأخرى

تقفُ إحداهنَّ على كَفِّي

أتأمَّلُ سحْرَ انعكاسات البَنَفْسَج

على الجَسَد النحيل

أدْفَعُها في الفضاء

بعد أن تركت جناحيها

وشمًا

على جدار روحي.

صعدت السيارة بسابينا وطفليها ودارية عدة كيلو مترات رأتها سابينا تلًّا رغم إصرار دارية أنها جبل. يمينًا ترتفع الأرض بحمْل أشجار عملاقة. إلى اليسار ترقد هوة عميقة. تكسوها أشجار أخرى ترتفع هاماتها فتصل إلى أعلى من حافة الطريق بقليل. تركوا السيارة. ساروا قرابة مائتي متر. تتسارع أنفاس دارية مع الصعود. تَتَنَفَّسُ بعمق وتطرد الهواء من فمها لتهدئ من دقات قلبها. فجأة... تكشَّفت قمة التل الأخضر عن قلعة من قلاع العصور الوسطى. تبرز أحجارها الكبيرة المربعة من حافة النوافذ الاثنتي عشرة المستطيلة. غوطية الطراز. مسحوبة لأعلى. سهم يشير إلى قلب السماء. ويعلو المبنى حجارة مربعة محفور فيها صلبان.

صعدوا السلم الحجري إلى قلعة «هامباخ» حيث يقام معرض مشترك لاثنين من

الفنانين الألمان والفنان المصري. وقفت دارية أمام السور الحديدي الفاصل بين ارتفاع التل والهوة الخضراء. يليها انفتاح المدى على درجات الأخضر. يتداخل مع زرقة سماء شاحبة. أغمضت عينيها على خفق التحليق. عندما دخلوا من الباب الحديدي السميك، قابلهم إلى اليمين مسرح صغير بدا لدارية المكان الملائم لمسرحية لشكسبير. وسابينا تقول:

- حضرت «هاملت» هنا الصيف اللي فات. عرض رائع.

في الدور الثاني، أمام السُّلَّم مباشرة، ساحة صغيرة بها معرض صور فوتوغرافية لتطور عمليات الترميم، ليس فقط في «هامباخ» ولكن في أماكن أخرى قديمة في ألمانيا. المكان قبل الترميم ضائع الملامح. ومع انتهاء كل مرحلة يعود الزمن إلى الوراء خطوة، خطوتين. ثم.. تهزم يد الإنسان الزمن.

وصلوا إلى الدور الثالث. قابلتهم صالة مستطيلة تحوي لوحات الفنانين. تتناثر في أركانها تماثيل. وقفت دارية أمام امرأة عارية من الرخام الأبيض بتشبيحات رمادية خفيفة. تضع يدها اليسرى في وسطها والأخرى مرفوعة وراء الرأس. «جسد أفروديت ووجه إيزيس». وقفت أمام الجزء الأوَّل. بدأت تلتقط صورًا
وتُدوِّن ملاحظاتها:

- «جيغاد شميت». تكعيبية الخطوط. تداخل درجات الأخضر والبني في تناسق. لكن ماذا بعد؟ هل الإيقاع اللوني الجميل يكفي؟ مازلت غير مؤمنة بلا موضعية الفن.

- «أورليش شبيجل». ريشة أنثى تعيد بناء جسور مع الطبيعة. بيوت فلاحين صغيرة وأناس في الحقول. بعيدون. ريشة انطباعية ذات ضربات سريعة حادة. متكسرة أحيانًا. ألوان صريحة. غير مخلوطة. تقبض على تأثير الضوء على

الحقول. الأجساد الصغيرة تظهر كأنها جزء من تمايل أشجار السرو في أطراف لوحة أكريليك على توال ٥٠*٧٠. أجمل ما يميِّز لوحاتها هو ألوان البهجة وهذه الخطوط المنسابة التي تضع البيوت والجبال في أماكنها، لكنها لا تطبق عليها فتفصل بينها. تبدو الأشياء والعنصر الإنساني امتدادًا طبيعيًّا لبعضها البعض.

- «أحمد نور الدين». أغلبها لوحات حيوانات. كلاب. ثعالب. أو مزيج من فهد وجناحي طائر. يغلب اللون الأزرق بدرجاته على الكثير من اللوحات فيخلق أجواء حلم حينًا، وكابوس حينًا آخر. «الحارة» زيت على خشب ٥٠ × ٥٠. حارة مصرية. بيوت قديمة. ذات شروخ طولية. بلاطات مكسورة. ضوء خافت - يأتي من تلفزيون - ينعكس على أوجه آدمية لها ذيول وأجساد بشرية برؤوس حيوانات. لوحة أخرى لثعابين خضراء قاتمة على خلفية من الأزرق. يبدو كأن الضوء منبعث من جلودها اللامعة. ألسنتها الرفيعة الطويلة متشابكة. (أكره

هذه اللوحة). «مهرة». زيت على توال ٥٠×٧٠. اللوحة يغلب عليها عتمة أزرق كابوسي. في الخلفية دوامة من الأزرق القاتم. بها أكف آدمية مفتوحة الأصابع في تشكيل دائري. يشغل وجه المهرة مقدمة اللوحة. شعرها المشدود إلى الخلف في خطوط مستقيمة يعكس قوة ركضها إلى الأمام. في اتجاه مصدر ضوء ينير ملامح الوجه. مغناطيسي النظرة. في العينين لمعة شراسة وتحدٍّ. وبقايا خوف قديم. تبدو خطوط الجسد المنسابة الناعمة كأنها تتحدى لزُوجة الأسود العالقة بالأقدام. (يبدو من بروز الأسود على سطح اللوحة أن الفنان قد استخدم تكنيك الحصى على الرمل).

- دارية.. مالك؟!

كانت دارية مُسمَّرة أمام اللوحة. في مكان آخر. قالت بصوت خفيض مأخوذ كأنها تُحدِّث نفسها:

- سابينا. دي أنا!

لمست سابينا كتفها بحنان يفهم. ويقول. استكملتا الدوران أمام لوحات الفنان المصري. تشاهد دارية بقية عالمه الحيواني وتعود بعينيها إلى «مهرة». سمعت من خلف كتفها:

- أستاذة دارية. أحمد نور الدين. مبسوط إني أشوف مصرية هنا. دلوقت.

التفتت دارية لتجده أمامها. قريبًا منها. هو. وجهها القديم. أسمر. جنوبي الملامح. شعره متروك بلا تمشيط بشكل تلقائي. يرتدي ألوانًا ساخنة. على عكس لوحاته. أحمر وأصفر وبرتقاليًّا.

- مش أستاذة دارية برضه؟ عرفتْ من حارس الأمن اللي سجل اسمك إنه انتِ.

أومأت دارية برأسها. ولسانها في حالة عجز كامل. مدت إليه يدًا ساخنة. مرتعشة.

لم تنطق حتى عادت إلى شقتها. وحتى اليوم التالي. كتبت إلى هادية تسألها: «هل سبق لك أن عشت حُلمًا وأنت مفتوحة العينين؟!».

* * *

عندما ينغلق باب المصعد المربع بهدوء، يبدو من الداخل كأنه صندوق كبير بلا منافذ. لست وحدي. معي رجل. وطفلة لا تتعدى السنوات الخمس. فجأة يبدأ المصعد في الدوران حول نفسه. بشكل دائري. بحركة تزداد عنفًا. أمْسك الطفلة التي تحولت بين يدي إلى ولد. أجلس على الأرض وآخذه في حِضني وأنا أتلو بصوت مسموع: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ

الْعَظِيمُ). مرة. ومرة. ومرة. «لا بد أنه زلزال». خائفة. لكني متماسكة. يتخللني يقين أن كل شيء سيعود إلى مداره سريعًا. لاحقًّا عندما أسمع أصوات أقدام مسرعة في الخارج، أتأكد أنه كذلك.

أصحو من نوم متقطع. قصير. فجرًا. لا يبين من باب الغرفة الزجاجي إلا الظلام. لا يمكنني النوم مرة أخرى. أشعل ضوء الأباجورة الصغيرة. ألتقط ورقة بيضاء وقلمًا. نفتيس تشاركني الحيرة:

حَشْدُ ذكريات الأمس

شلَّالٌ

يَهْدرُ في رأسي

يتقاطعُ.. خطوطًا ودوائر

حكايا.. منحنيات ودهاليز سحرية

يجرف أسوار الزمن الحجرية

بعيدًا

عتمةُ البشرة الداكنة

لونُ أحلامي.. والعينان

مذاقُ الوهم تفاحٌ

مغموسٌ بملح الدموع

يسكنني أبدًا

الطفلُ بداخلي

في قلب الرِّيح

يطاردُ بالونات الوَهْم الملوَّنة

أحمر.. أزرق.. أصفر.. موف

كأنه يطاردُ سرابَ الحياة

يقينًا يعرفُ

أن بداخلها

لا شيء إلا

ملء قبضتيَّ

هواء.

*** * ***

ركبت دارية قطار الثامنة صباحًا إلى «هامباخ». وقد اتخذت قرارها:

- صباح الخير أستاذ أحمد. آسفة على امبارح. كنت
تعبانة شوية.

- إنْت ما تتأسفيش على حاجة أبدًا. رائع إني أقابلك هنا. زي ما اكون كنت مستنيكِ.

- إزاي يعني؟

ثَـبَّت عينيه عليها. كأنه يريد سبر أغوارها

في لمحة:

- يعني جميل أقابل بنت مصرية. حد مصري. مصر
واحشاني قوي.

- إنت عايش في ألمانيا؟

- بين ألمانيا ومصر. أروح مصر أتعب من الحر والدَّوْشه والتلوث والناس. ما أعرفش ارسم كفاية. أشتاق لجو ألمانيا ومرسمي والهدوء. أتعب من الهدوء والوحدة. توحشني مصر. فلوكة على النيل وأصحابي والتراب والدوشة.

- حياة غريبة.

- باحبها. وانْتِ؟

- لسه مولودة يا دوب من تسع شهور. عايزه أحكي لك
كل حاجة.

وحكت دارية. حكت. ظلت تحكي حتى بعد إغلاق المعرض في الخامسة. سارا أسفل التل الذي تربض فوقه القلعة. وروح دارية ترفرف بعنف. حكت له عن حياتها و..

- أحكي لك قصتي معاكِ.

رد بنبرة هادئة بعد أن توقف عن قرض أظافره:

- مش عايز أعرف.

- لأ. هاحكيلك!

لم تفهم دارية لمَ لا يريد أن يعرف قصته معها. لكنها كانت مدفوعة بقوة خارجة عنها ونابعة منها. حكت له عن أحلامها:

- في اللحظة اللي كانت حياتي بتنهار. كنت انتَ.. مش انتَ انتَ. أقصد إنتَ اللي جوايا. نُصِّي التاني كان بيطبطبني. والجرح بيقفل وأبقى أنا.

توقف عن المشي. على حافة الطريق الضيق الملتوي. يعلو الهوة الخضراء. لحظة كانت الشمس برتقالية. ذاهبة. استدار إليها. احتضنها. أغمضت عينيها وتنفَّست بعمق. فكَّ من التفاف ذراعيه حولها ومال بشفتيه تجاهها. أزاحت وجهها بعيدًا.

- نور حاوِل تفهم. أنا مدركة إني مش باحبك انتَ. أنا باحب صورة رسمها عقلي. حاجة مش انتَ. انتَ اللي واقف قدامي دلوقت مجرد وهم.

نظر طويلًا في عينيها. مال بشفتين دافئتين. أعطاها قبلة قصيرة. ذهبت بها بعيدًا. إلى الوراء. إلى نظرة عينين سوداوين. وقبلة قديمة مايزال عبقها حيًّا. ونظرة فيها انبهار. وحنان. وأشياء مخبوءة.

عندما عادت إلى شقتها، كان عقلها يلف مع خرير ساقية بعيدة. تدور بها. وتعود إلى النقطة نفسها من جديد. تنسال روحها مع دائرة الماء. يرفع ثقلها فوق السطح.

يهدهده. يدور به. والخدر يسري في جسد الكون.

*** * ***

أنا على متن سفينة عملاقة. ممتلئة بالكبائن الصغيرة. في عرض البحر. أناس كثيرون لا أعرفهم. لكني مسافرة معهم. تقع حادثة. لا أعرف كيفية وقوعها. ولكن.. جسد ميت يخرج نصفه الأسفل من سيارة مفتوح بابها على طريق أسفلتي مقفر. أجساد طافية فوق سطح البحر. «لا. لن أنظر حتى لا تنطبع في ذهني صورة أحدهم». البوليس يغلق السفينة. يمنع كل من عليها من الخروج. لكني لا بد أن أذهب سريعًا. ليس أمامي إلا نصف الساعة على موعد لقائي بتلاميذي في «النادي الثقافي». أستغرب قبولهم إعطائي تصريحًا بالخروج. يُصَرِّحون لي بالنزول من شبَّاك السفينة مع فتاة أخرى. أنظر من أعلى. أعرف أنني سأهبط على عمود طويل. «منتهى الخطر». لا أستطيع . تعدِّل

السفينة من وضعها مقتربة من رصيف الميناء. أنزل. أثناء نزولي تقع عيناي على أحد الأجساد الميتة. في جلابية رمادية. عيناه كالزجاج الأبيض. غير شفاف. صدره مفتوح من ناحية القلب. ولحمه بارز من عظام الصدر المكسورة.

قرب الشاطئ أرى شخصًا بدائيًّا أسمر. يعوم وراء سمكة كبيرة. يتحداه الجمع على الشاطئ أنه لن يستطيع اصطيادها. يتحداهم بثقة. بطريقة ما يُدْخل السمكة في دلو. ويخرج به إلى الشاطئ. نفس الشخص البدائي يتحول إلى طفل يقطع من صدر السمكة لحمًا ورديًّا. يأكله نيئًا. أطلب منه الصبر حتى نشويها.
لا يبالي برأيي.

أفتح عينيَّ على انقباض في صدري كلما طاردتني صورة الجثة مفتوحة الصدر. والعينين. لكن عندما أتذكر أنني سأرى نور اليوم، يدق قلبي بعنف. أرتدي فستاني الأبيض. متسعًا. بلا أكمام. ذا ورد أزرق

صغير. «عايزك تلبسي الفستان اللي شفتك بيه أول مرة. كُنْتِ عروسة بحر».

* * *

في الطريق إلى قرية «سانت مارتن» مرت سيارة نور بعدة قرى. صغيرة. أنيقة. صباح سبت خريفي. تدمع السماء قليلًا. فيقشعر ذراعا دارية. وتظهر الشمس مرة أخرى فتقذف بالجاكيت التريكو الأصفر على المقعد الخلفي للسيارة. ونور يشرح:

- شهر واحد من دلوقت. في أكتوبر. يتْملي الطريق ده عربيات لمسافة خمسين كيلو. موسم النبيذ. كل الألمان بييجوا يشتروا نبيذ السنة.

كان كل شيء واضحًا لنور ولها. لم تكن لتحاول إخفاء مشاعرها على أي حال. عيناها لا تبرحان وجهه:

- إنتَ مين؟!

توقف نور عن قرض أظافره. نظر إليها، على شفتيه نصف ابتسامة. وبعض الغموض:

- وصلنا.

تركا السيارة. سارا. أسفل نوافذ البيوت توجد فترينات أنيقة عرضية لزجاجات النبيذ. نبيذ حلو. نبيذ حاد. نبيذ أحمر. أبيض. وردي. جديد. معتَّق. جذبها من يدها ليتذوقا ويختارا.

- النبيذ الجديد طعمه فاكهة. كإنك بتشربي عصير. لكن تاني يوم دماغك تلف وتنسي نفسك. عايزك تقفي عند النافورة دي. لأ. أقعدي. شعرك بيضوي في الشمس. هتطلع صورة جميلة. زيك يا دُرَّة. صحيح ما قلتيليش لونك خمري وملامحك صغيرة. منين اسم دارية؟

- أبويا كان نفسه يخلّف بنت. مش أي بنت. لأ. بنت فاهمة ودارية. عندها مخ وبتشغله.

وأمي حامل سافر الهند في بعثة دراسية وقابل هناك بنات اسمهم داريا. يعني نهر. هتلاقي في آسيا الوِسطى نهرين «أمو داريا» و«سير داريا». حَب الإسم بس قال ولو « دارية» بالعربي معناه أجمل. بس أنا برضه باحب أكون نهر. حد يكره.

- إنْتِ عارفه إن دارية بالروسي يعني «هبة»؟ أصل أنا أمي روسية.

- بجد..؟

- وأبويا أيرلندي. علشان كده أبيض وعيوني زرق.

تبتسم:

- نور ساعات ما بافهمش إنت بتهزر ولّا بتتكلم بجد. أو يمكن أنا غبية.

يضحك ضحكته العالية:

- على خفيف يا حبيبتي. بس ولَوْ، اسمك

ده بتاعنا إحنا.

- وهو إنتم مش حتة من مصر؟

- أجمل مكان فيكِ يا مصر. النوبة بصخورها وشمسها الحامية وناسها وأغانيها في ليالي الصيف. لكل مناسبة أغنية. ناسها دمهم حامي. صُرَحا وواضحين ويعشقوا الحياة رغم عملية التشريد اللي إنتو بتسموها تهجير. وأجمل نيل نيلنا. أنا مش بتاع مدن. أنا ابن النيل. روحي ساكنه جوه المية. وانْتِ كمان يا دُرَّة بنت النيل.

- صحيح عندكم لازم تتجوزوا من بعض؟

- ما عدش زي زمان. كتير بيمشوا علشان الرزق والتعليم. أنا خريج فنون إسكندرية. وعندي مرسم في المنيا. عشة على النيل.

- نور، إنت واخد بالك إنك تعرف كل حاجة عني. وأنا ما عرفش عنك أي حاجة.

- عايزه تعرفي إيه؟ ما عنديش أسرار...

قالها وهو يداري انفعاله.

- عايزاك تتفتح معايا. وتقول كل اللي جواك. لكن.. أنا ما اقدرش أطلب منك تحس بيّا قد ما أنا حاسَّة بيك. أنا آسفة.

عندما دخلا المقهى الصغير قابلهما «خالد» الذي احتضن نور بحرارة. وفوجئت دارية بصوت عبد الحليم «أهواك». يحمل إليها نسيم صيف ليالي القاهرة على الكورنيش. والشباب يلتفون في حلقة يغنون معه. ويتغامزون على الفتيات. باعة الترمس. رائحة الذرة المشوي. والآيس كريم. يلتف حوله الصغار. يسيل بألوانه على وجوههم وملابسهم. فتجري الأمهات تمسح أفواههم. ويعدن إلى حلقة الثرثرة المنتظرة. «أهواك. واتمنى لو أنساك..».

- علشان أحلى دُرَّة.

احمرَّت وجنتاها:

- خالد هنا من زمان؟

- من عشر سنين تقريبًا. ما نفعش في تعليم. جه ألمانيا واتمرمط لحد ما بقي صاحب مطعم قد الدنيا. متجوز ألمانية وعنده ولدين.

خرجت دارية إلى شمس شرفة المقهى. مطلة على الوادي من علٍ. خطوط أشجار الكروم الأحمر منتظمة. الزهور بنفسجية وبيضاء تتدلى من الشرفة. تتحرك باتجاه الريح. تطير بشعر دارية البني الطويل. شعرت بنور يقف وراءها. يحيطها بذراعيه:

- باعشق شعرك يا دارية. «أيكَّدُّوللي» باعشقك.

عندما أدار وجهها إليه، كانت بلورات الملح تتساقط:

- ليه يا دارية؟

- نور. أنا مُدْركة إني باحب صورة في خيالي. أنا ما أعرفكش. كل حاجة جوايا متلخبطة. مش عارفه الحد بين الحلم والواقع.
أو يمكن عارفه، بس عامله نفسي مش عارفه.

- أنا باحبك يا دارية. وباحترمك.

- إنتَ وهم أنا عملته.

- وانْتِ كمان بقيتِ وهمي.

- نور أنا طالعه من تجربة قاسية. وموجوعة. ممكن ما تجرحنيش؟

أخذها نور في حضن ذي عبق قديم. وروحها تتخبط بين عدم اليقين وشعور يتطاير حولها كزغب العصفور الأبيض المتناثر لحظة التحامه بالشمس.

- دُرَّة. شكرًا على السعادة اللي باحسها وأنا مَعَاكِ.

* * *

أرقد على سلم منزل أبي. تحيط به أشجار الحديقة الصغيرة. في مواجهة الشارع العريض. نور معي. بجانبي. يمسح بيديه على جسدي. أنساب. تزداد سرعة حركة يديه. وجهي جامد الملامح. لا يفصح. عقلي ينبهني «تَحكَّمي. عليكِ فقط أن تُصدِّقي». في حركة واحدة مفاجئة أنتفض واقفة. أعطيه ظهري. أدلف من باب المنزل إلى الداخل.

أفتح عينيَّ على عتمة الشقة الواسعة. وصوت نقر المطر على الباب الزجاجي. «تَحكَّمي. تَحكَّمي». أغفو مرة أخرى. أقابل أمينة وجاسر. عندما أصحو فجرًا أتذكر الحلم الأول. أما الثاني فيعصاني. كان طويلًا. ومشحونًا. لكن الآن. «لماذا يراوغني؟ لماذا قرر أن يغلق نفسه في وجهي؟». أجلس على طرف سرير أمينة. أقرأ لها المعوذتين وأنا أُمَسِّد شعرها. «وأنا كمان يا مامي. إقري لي قرآن». أذهب إلى

جاسر. أفعل الشيء نفسه. وأمي تقرأ لي آية الكرسي. وتمسح ظهري بحركة بطيئة رقيقة من أعلى لأسفل. أترك سريري متباطئة. ألبس مايوه الإيروبكس حتى ألحق بدرس الصباح. لأعود إلى الحياة.

* * *

- اقعدي على الأرض يا دُرَّة. ظهرك للمية. خدي الوضع اللي يريحك. وانسي إني بارسمك.

على حافة بحيرة «باجرسي» بالقرب من «جرمارسايم». صغيرة. مستديرة. فوق العشب الأخضر. فرد نور حامل الرسم. ثَـبَّت اللوحة التوال فوق الحامل. بدأ يفرغ الألوان من أنابيبها على الباليتة. أحمر كارمن. أصفر ليمون. فليش. أبيض. صب نقطة من زيت الرسم ذي الرائحة المميزة على الباليتة. غرس فيها الفرشاة. وبدأ يجرب درجات اللون. عينا دارية تجوبان المكان. تعودان إليه. تتخللانه. يترقرق

فيهما ملح العشق:

- المكان حلم يا نور.

- أنا دايمًا آجي هنا. في غير أيام الإجازة ماتلاقيش مخلوق. ده مكاني. أصله كان من أملاك جدي.

تبتسم:

- فعلًا..!

- إنْتِ أصلك جاهلة يا حبيبتي. لو رجعت للتاريخ هتعرفي إن في منطقة الراين اكتشفوا أكتر من مرة تماثيل من البرونز للآلهة المصرية. ولو زرت كنيسة أورسولا في كولونيا هتلاقي تمثال «لإيزيس التي لا تقهر» استُخدم في العصور الوسطى في تاج واحد من الملوك. وهتعرفي كمان إن قرب الكنيسة لقوا مقبرة كاهن مصري اسمه حورس بن بابك. الكاهن ده بقى كان جدي.

تتسع ابتسامتها:

- وبعدين؟

- أبدًا يا ستي. جدودي ضيّعوا جزء من الإقطاعية - على الحريم طبعا - والجزء التاني صادرته الحكومة.

- يا حرام.. ابقى فكرني أديلك حاجه بعد ما ترسمني.

بدأت فرشاة نور تنساب فوق سطح اللوحة.

- انتِ قاصده تلبسي برتقالي النهارده؟

- أنا مابقصدش حاجه. بامشي ورا إحساسي.

- أصله ماشي تمام مع لونك الخمري ومع ألوان المكان الباردة، شفتِ لوحة «مستحمات سيزان الكبيرة»؟

- لأ.

- شيء عبقري. ٨٢×٩٩ بوصة زيت على توال. يعني ٨ قدم. اشتغل فيها سبع سنين ولحد ما مات ماكملتش. لكن لازم تشوفي إزاي قدر في تكوين المثلث اللي خلقه من الشجر على شط بحيرة يدمج مجموعتين من المستحمين - من غير ملامح وش أو جنس واضحة - مع عناصر الطبيعة. إزاي استخدم الأصفر الجيشي والأزرق بشكل ناعم زي تكنيك ألوان المية.

مضى بعض الوقت وهما صامتان. نور يخط انحناءات الخطوط الأولى على سطح اللوحة. ويقرض أظافر يده اليسرى. ودارية مستلقية على العشب الأخضر. يغزوه بعض الاصفرار. تترك وجهها لِقُبْلَة شمس الخريف الحانية. تذهب مع استدارة البحيرة. تسورها بحنان أشجار السرو العملاقة. ذات أطوال متقاربة. تتمايل بخفة مع نفحات الهواء المغسول. فتؤكد لدارية أن هذا ليس حلمًا.

- ليه الحيوانات يا نور؟ كل لوحاتك حيوانات.

- إنْتِ شايفه كده؟

- مش بالظبط. صحيح كلها تصوير لتعالب ونمور وثعابين - باكرههم - وأحصنة وكلاب. لكني باحس إني شايفه بشر. مش عارفه. يمكن العيون. «مهرة» أكتر لوحة عجبتني لأسباب ذاتية تمامًا.

- دي عيون أختي «وفاء». قصتها زي قصتك بالظبط. ما قِدّرِتْش تعيش معاه. أخد الأولاد. كانت قدام الناس بطلة. لكن كنت عارف إنها بالليل. لوحدها. بتبكي. لكنها كانت ست جدعة. ولما ماتت. قعد يعيط. ويقول لي: عمري ما أعوَّضها. طب ليه عذبتها لما كانت معاك. ولَّا لازم نموت علشان يحسوا بقيمتنا؟

- أنا آسفة يا نور.

- أهو واحد زي ده أنا شايفُه كلب شارع.

مش كل الكلاب حقيرة. أكترهم نبيل. لكن ده نوع كل همه يخطف حتة لحمة من الجزَّار ويجري. أنا بارسم الحيوانات اللي باشوفها في الناس اللي باقابلهم. واحد عيونه صغيرة. حادة وخبيثة زي التعبان. باشوفه واعرف إنه مخبِّي لسان رفيع مشقوق طويل وناب تحته سم. وواحد ما يقدرش يبص في عنيكِ. أصله فار. وواحدة قطة سيامي. عايزه حد يدلّعها. يشتري لها فيزون وألماظ. تعيش له قطة. لكن ممكن يكون في طبعها الغدر. تعمل حاجات من ورا ظهره. وواحد قرد. بهلوان. يتنطط ويلعب على كل الحبال علشان الناس تسقف له ويحدفوا له حاجه. وواحد فرس عربي أصيل ونبيل. ما يتكررش. الحيوان يا دارية هو روح الحقيقة اللي جوَّانا بكل دناءتها وسموها. هو الغريزة وهو المقدس. شفتي معابد الفراعنة. إزاي كانوا بيقدسوا الحيوانات ويحنطوها. إزاي الآلهة كانوا أجساد بشرية برؤوس حيوانات. مش ممكن تكون مصادفة. الفن عندي زي ماكان عند بيكاسو، صدمة للمتلقي. صدمة

ترجَّه وتصحيه على إدراك جديد. ربنا إدَّالي لي جهاز أفك بيه الشفرة وأشوف الحيوان اللي جوّه كل واحد. وأعيش أتعذب بتقل الوعي على ضهري. قسوة إني فاهم. وشايف. ساعات أتمنى لو أكون حمار. يمكن جسمه تعبان. لكن عقله في راحة. تعالي يمين يا دُرَّة. عايز الضوء ينزل على نص
وشك الشمال.

- عارف يا نور. بعض القبائل البدائية بتعتقد إن لكل إنسان «روح شجرة» إلى جانب روحه. ممكن تتجسِّد في شكل حيوان أوشجرة. نوع من الهوية السيكلوجية. الشيء اللي أطلق عليه العالم الفرنسي لوسيان ليفي برول «المشاركة الصوفية». ولما هاجموه رجع في كلامه. لكن كان عنده حق. ممكن الإنسان يبقى عنده هوية خفية مع كائن أو شيء آخر.

- عملية التحضر اللي مَرّ بيها الإنسان في القرون الأخيرة نتج عنها أخطار يمكن أكبر

من خطر الشياطين اللي البدائي كان بيحاول يتفاداها. طول ما احنا مِطَلَّقين نفسنا من العالم الحقيقي. الطبيعة. الشجر. النيل. الرمل. طول ما هنفضل نجري واحنا مش عارفين بنجري ليه. علشان نعمل فلوس؟ طب وبعدين. لما انا بامسك الفرشة واقبض على الحقيقة داخل اللوحة. لما انْتِ بتمسكي قلبها بشِعْرِك، هي دي الحقيقة. مش أي حاجة ثانية.

مسح نور يده في قميصه. عاد إلى قرض أظافره. وانشغل بضربات الفرشاة على سطح اللوحة. انسحبت دارية إلى داخلها. تتأمله. مايزال لغزًا يراوغها. يتحدث عن العالم. ولا يتحدث عنه. «أي نوع من الحيوانات أنت يا نور؟ هل تعرف نفسك كما تعرف الآخرين؟!». لم تسأله.

- بتحلم بإيه يا نور؟

- حاجات كتير. مش بافتكر. أيوه. حاولي

تحافظي على النظرة دي في عنيكِ.

- فيه حقيقة حقيقة جوانا يا نور. الحلم. أنا ما بدأتش أعرف دارية إلا لما بدأت أفهم أحلامي. عملية التحضر اللي كنت بتتكلم عنها فرضت علينا غربتنا عن نفسنا. عن ذاتنا الحقيقية. الحلم فيه الشياطين اللي كان البدائي بيعرف يتعامل معاهم بطقوسه. والملايكة كمان. فيه ظلنا اللي بنعمل نفسنا مش شايفينه. وفيه ربنا اللي جوه كل واحد فينا. أنا باتعلم أسمع صوت حلمي. ساعات طبعًا أسمع وأعمل نفسي مش واخده بالي. بس ساعتها بابقى عارفه إني باستعبط. وهو بيفوت لي. عارف يونج بيقول إيه؟ بيقول إن إحنا طول الوقت شاغلين نفسنا بسؤال: إيه هو رأينا في اللاوعي؟ وعمرنا ما بنسأل إيه رأيه فينا؟

ترك نور باليتة الألوان. مسح يديه في صدر قميصه. فرد يديه لأعلى محركا جذعه يمينًا ويسارًا بعد الجلسة الطويلة:

- «الحياة حلم قصير» أخوالنا الرومان قالوا كده.

ألقى حذاءه على الأرض. جذبها من يدها داخل ماء البحيرة. عندما وصل الماء إلى ركبتيهما، خلع ملابسه وقذف بها إلى الوراء.

- نور! اتجننيت!

- لسه واخده بالك دلوقت. ربنا يكملك بعقلك.

ترك يدها. وقفز داخل الماء. وقفت تنتظر ظهوره حتى دق قلبها قلقًا. شق الماء على بعد كبير من الشاطئ. بجسده النحيل. صدره الناعم بلا شعر. ورأس بدا نصف حجمه عندما ابتل الشعر. ضحكت. لم تتردد. خلعت ملابسها. قذفت بها إلى الوراء. قفزت داخل الماء. رجت صدمة برودته روحها. أخذت تضرب الماء بذراعيها. وقدميها. ثلاث ضربات وترفع رأسها إلى

اليسار لتلتقط نفَسًا. ثم ثلاث ضربات. فتندفع إلى الأمام. وسطح البحيرة. يموج من حولها. حتى وصلت إليه لاهثة. تضحك. تستغرب ارتعاشة جسدها عندما يداعبه الماء. اختفى نور تحت الماء. تلتفت حولها. شعرت بكتفيه أسفلها. رفعها فوق سطح البحيرة. ثم قذف بها إلى الخلف. فتصرخ ضاحكةً وجسدها يرتطم بالماء.

- نور إنت مجنون بجد!

يغوص لأسفل. يرفعها. فتشعر ببرودة النسمات الخريفية تلفح جسدها. ويقذف بها إلى الخلف. تصرخ. وتضحك مع ارتطام جسدها بالماء. مرة. ينشرخ الجدار السفلي لمحارة الروح. ومرة. يزداد عمق الشرخ. يتسع. ومرة. تتفتت المحارة. تغوص أجزاؤها بهدوء في اتجاه رمل القاع. والحصى. ودارية تضحك. وتغوص. تدور حول قدميه أسفل الماء. جسدها يلتوي ويلتفت حول نفسه مثل سمكة ضَحّاكة. كل دورة تذيب تكلسات ملح السنين. بينما

يردد فضاء المكان ضحكة نور العالية. ودهشة طفولته. تشق الماء من خلفه. ملقية ذراعيها حول خصره. ورأسها يلتصق بسمرة جلد ظهره البُنّي. تدس أنفها في خصلات شعره المبتل.

تستنشق. يبقيان على هذا الوضع حتى تهدأ أنفاسهما تدريجيًّا. عندما يفك يديها من حوله. ويستدير يواجهها. ترى العينين السوداوين الصغيرتين نفسيهما. تخترقانها وتغوصان في العمق. يقطر منهما الماء وصهيل العشق. ترفع وجهها إليه.
وعيونهما مغمضة.

ليذهبا..

وترتعش أشجار السرو على حافة استدارة البحيرة.

* * *

أجدني في منزلي القديم. شكله مختلف.

أشعر بالاختناق عندما أنظر إلى صفصافتي، متهدلة، عجوزًا، تخيم عليها ظلال الكآبة. أتفق مع سيف أن وجودي بالمنزل ليس ترتيبًا نهائيًّا حتى لا نصيب الطفلين بالإحباط. أمينة ليست بالمنزل. أجلس في الشرفة. ثم أدخل الحمام. (شكله مختلف) لأغسل يدي في ماء الصنبور السفلي للدش. أغلق الماء. ولكن ما إن أصل إلى الباب حتى يفاجئني اندفاع الماء إلى آخر الحمام. تظهر والدة سيف (تعيش معنا في المنزل نفسه). تصيح: «كل ده بسبب أبوك» لأنه أساء إصلاح الصنبور بأن وضع داخله عود كبريت. أشعر أنني في موقع المدافع عن نفسه. لا أرد.

سيف مكتئب. لا يتحدث معي. لا ننام في غرفة واحدة. جاسر سعيد بوجودي. يشدني إلى غرفته. مكونة من بقايا أثاث قديم. يقول بفرحة: «ده بقى مكتبك يا مامي». يتنازعني شعور متناقض. أنا سعيدة أن ابني يفهم معنى الكتب بالنسبة لي. لكني تعسة لأن عليَّ إخباره

أن وجودي ليس دائمًا. أرد: «خلاص يا جَسُّور، لما آجي هنا هاجيب كتبي وأذاكر في أوضتك. وانت لما تيجي عندي تجيب لعبك». صغيري لا يتذمر. لكن سيف يعنفني أنني قد صدمت الطفلين اللذَيْن اعتقدا أنني قد عدت. أذكره باتفاقنا الأول. وجودي ليس وضعًا دائمًا. لا يسمع.

أصحو وموجة اشتياق لأمينة وجاسر تغمرني. «أين أنتِ يا أمينة؟». أقبل وجنتيهما. آخذهما في حضن قلبي. «متى ترسل إليَّ بِصَكِّ عِتقي يا سيف؟». أغسل وجهي من آثار الملح. وأخرج للحديقة. لأبدأ دورات عدوي بمحاذاة سورها.

* * *

دارية:

وصلني الكارت وعليه صورة الراين. ولوْ يا ستي نيلنا أجمل. مصر بخير. حَرّ شوية. والعيال مطلعين عيني. بارتب للمعرض

الجاي وراجعتلك البروفة الثانية للديوان. إيه حكاية الحلم اللي شايفاه وعنيكي مفتحة؟ دارية أنا كدة اطّمنت على عقلك. وكمان بتروحي إيروبكس في ألمانيا يا مفترية. يا ترى افتكرتِ تسألي لي «موسوعة الفنانين العظماء» بكام؟! عارفه لو نسيتِ، هابلّغ عنك البوليس يجيبك من قفاكِ ويوديكِ لسيف.

وحشتيني.

هادية

قرأت دارية الخطاب سريعًا وحملته معها. يدفئها أينما ذهبت. تتسرب منه رائحة صندل يهدهدها.

في المرسم الكائن في مبنى «قلعة الفنون» - في الدور العلوي من سكن دارية - التف حول أحمد نور الدين طلبة المعهد الدارسون فن التصوير. خليط من الألمان والصينيين، طالبة من تشيلي وآخر من

الهند ودارية. جاء «جرمارسايم» تلبية لدعوة من سابينا أن يعقد للطلبة ورشة إبداعية عن الفن المصري.

- صحيح إن الفن مالوش بلد. زي ما الإنسان إنسان في كل مكان. بتختلف ملامحه ولغته وبيئته. لكنه إنسان بيحب ويتألم ويكره. ولما يقف قدام لوحة أو يسمع موسيقى ما بيحتاجش لغة تانية غير لغة الفن. اللي هوأكبر تأكيد لإنسانيتنا. «قدرتنا على المتعة في حد ذاتها تُشير إلى الفعل الإلهي الحاضر والفعَّال في ذواتنا». لكن في نفس اللحظة فيه فن مصري. وفن صيني. وفن هندي. للفنان الحق في استخدام الأدوات المتاحة. لكنه بيطوعها لرسالة بيئته وحضارته من ناحية. ولفرديته هو كإنسان واحد ما يتكررش من ناحية أخرى.

فات اليوم وهو يعرض عليهم على البروجيكتور لوحات راغب عياد ومحمود سعيد وعبد الهادي الجزَّار وتحية حليم

وسيف وانلي، فاتحًا باب الاجتهاد والتحليل والتساؤل أمام الطالبات والطلبة. جلست سابينا بجانب دارية. تلقي بشحنات أسئلة سرعان ما يتلقفها الطلبة ويسألون. ونور يجيب. ويحللون. وهو يتفق معهم. ويختلف. ويكتبون.

عندما انتهت الورشة في الخامسة اصطحبته دارية إلى مطعمها على الراين. كان منطلقًا. وكانت محلِّقة. كانا طفلين. يشير نور:

- عارفه القصر ده. كان بتاع جدي. أجَّره لوزارة التعليم الألمانية. مدرسة إلزامي قال. بيدفعوا ملاليم ومش عارفين نطلّعهم.

- جدك حورس بن بابك؟

- لأ. التاني جدي لأمي.

انفجرت دارية في الضحك. وتركته يحكي عن خالته صفية التي تسكن الفيلا البيضاء

على الناصية. وأولادها الشياطين. «والبت مرفت اللي بتشتغل في «الكُنَـيْبة»، البار يعني. إبقي فكريني أديلك دروس ألماني». وأشرف بن حميدو حسنين الذي أراد خطبتها. ولكنها رفضته.

- مين حميدو حسنين. عمك؟

- لأ. بياع الفول على ناصية الحارة.

مغصت معدتها من الضحك وهي تتابع ملامح الجدِّية على وجهه وهو يحكي لها تاريخ الأشياء. بعد أن انتهيا من الغداء في حديقة المطعم تركته لتحضر مشروبًا من الداخل. عندما عادت لمحته على ناصية الطريق. في الخارج. ظهره إليها. يلتقط زهرة وردية من حوض مليء بالأبيض والوردي. جرت في اتجاهه. تحضنه من الخلف. استدار إليها وأعطاها الزهرة. على وجهه ملامح طفل خجل. وضعتها على صدر فستانها دفنت رأسها في لحم رقبته البني. تستنشق رائحته. يحيطها بذراعه

النحيفة ويسيران في اتجاه النهر.

- معقول يا نور؟! نفس الطريقة اللي حضنتني بيها في حلم كنيسة المرعشلي. ونفس الطريق لنهر. مش فاهمه حاجه! بس في الحلم كان النيل.

- إكي إلهي هدية كرْ إشتِّرسو.

نظرت إليه متسائلة.

- يعني أنتِ هبة من ربنا يا دُرَّة.

جلسا أمام النهر. واليوم ذاهب. ونور راحل في الغد إلى مصر. عندما يستدير وينظر في عينيها، يخفق جناحاها. تضع كفيها على وجنتيه. فيغمض عينيه. ويتنفس. «متعب أنت يا نور». تمسح على رأسه كأنها بتعويذة خفية تريد أن تخفف من ثقل أحماله التي لا تعرفها. تقترب. تقبِّل جبهته وأذنيه. ورقبته، وشفتيه. عيونهما مغمضة على مذاق الحلم. وخفق التحليق. عندما

تستكين بين دفء ذراعيه، تشعر كأن الماضي لم يكن. كأن الألم لم يَخِزها. والملح لم يلمس شفتيها قط. كأن العالم يموج داخلها. كتلة نور بهيّ وضَّاء يحتويها. ويغشى عينيها. ترفع رأسها إليه:

- عارف يا نور لو كل الناس شافت جناحاتهم، كان العالم بقى أجمل من كده بكتير.

مسح على رأسها وأخذها فوق صدره. بقيا حتى قارب موكب الشمس على الرحيل. ووجه أوزوريس فوق الماء على وشك ارتداء عباءة الليل السوداء. أعطت دارية الكاميرا لعجوز على دكة خشبية مجاورة. تخبر نور:

- عايزه اتصور أنا وانتَ والراين.

ضغط الرجل زر الكاميرا. ثم تأمل لبرهة شاشة الجهاز الصغيرة. مكتوب عليه «خطأ»:

- هو مافيش فيلم في الكاميرا؟!

انتابتهما نوبة من الضحك. ودارية تُغطِّي تماوج دوائر إحباط.

- معقول يا نور! ولا صورة من «هامباخ» و«سانت مارتن»؟ اتأكدت إنك مجرد وهم. الأشباح بس همَّ اللي ما يطلعوش في الصور.

- آسف يا دُرَّة. أكيد ما خدتش بالي.

جلسا حتى غطست الشمس وراء الأشجار. وازدادت
برودة الهواء.

ذراعه مازالت ملتفة حولها. وعيناه بعيدتان. عندما همَّ بقرض أظافره، سحبت يده اليسرى من فمه. قَـبَّلتْ أصابعه الطويلة. وأراحت وجهها على كفِّه.

- عارفة يا دُرَّة. إنتِ بتحبّي الراين وأنا باحب الماين. كنت باحبها. قضيت معها أجمل

أيام. أنا آسف. ده كان قبل ما اعرفك.

- بالعكس يا نور. أنا طول الوقت عايزاك تحكي. ثم معقول هاحاسبك على ماضي؟!

- قضيت مع إيزابيل أجمل أيام. بيتها كان على جزيرة صغيرة جوه الماين. بيربطها بالشط ممر ترابي طويل. وانتِ جوَّه البيت كإنك جوَّه النهر. كانت علاقة حلم. بس سبنا بعض.

- ليه يا نور؟

- كل واحد كان له طموحاته. ماكنش ينفع. أنا عندي مشاكل مع فكرة الجواز. إخوتي بيضغطوا عليَّ. عندي ٤٥ سنة ونفسهم أستقر. بس أنا رافض.

- ليه يا نور؟

- كفاية يا دارية. مش عايز أتكلم في الموضوع ده.

تراجعت دارية في التو. خطوة إلى الوراء. بعيدًا عن هوة الأسئلة. وعاد نور إلى قرض أظافره. وعينا دارية بعيدتان. تسبقانها إلى الشاطئ الآخر. «ما بُعْدُه؟». وعندما هَمَّا بالرحيل تعلقت دارية به:

- توعدني يا نور؟ هنا. قدام الراين!

- بإيه؟

- تحميني؟!

- إنتِ عبيطة؟ طبعًا يا دارية.

تنفست بعمق. سارت معه إلى محطة القطار. يتساقط عليهما رذاذ عيني نوت. يختلط بدموع محبوسة. تتلألأ القطرات تحت نور بدر كبير. قريب. بينهما وعود اللقاء في القاهرة. هدير العشق داخلها يرتطم بصخرة السؤال.

- أحضن لي النيل وشارع المعز.

* * *

أنا ونور في الشارع الضيق القديم. أسحبه من يده كطفل صغير أريه العالم. عالمي. البيوت الصغيرة النائمة وراء المشربيات المتربة القديمة بوجودها المستقل خارج جسد البيوت. نخترق نفايات آخر الليل وبقايا أضواء المكان. نصل إلى مسجد «المؤيد شيخ» بأسواره العملاقة وحدوده الشاسعة. «عارف يا نور أنا ليه باحب الجامع ده؟ لأن المؤيد كان اتسجن في المكان ده واتعذب لدرجة إنه ندر لو ربنا نجّاه من السجن هيبني مكانه مسجد. ولما وُلي ملك مصر وَفَى بالندر. اشترى مكان السجن - كان اسمه خزانة شمائل - وبيوت وحارات وأرض الأمير سنقر الأشقر، اشترى كل الأرض دي، وبنى المسجد في ست سنين. أنا كمان عندي ندر لما ربنا يديني حريتي». يبتسم نور.

أراني معه في قارب شراعيّ صغير. في نيل أسوان. يلف بنا حول كتل الصخور

الجرانيتية. تنعكس الشمس على زرقة النيل الصافية. فنبتهج. نور لا يتكلم. لكن قد حان دوره ليريني مكانه. يتحرك سطح الماء. فيبتسم ابتسامته الغامضة. تحجب عني أشياءَ. تتقافز من قلب الماء حولنا عرائس بحر. جلودهن صدفية لامعة ونهودهن ممتلئة بأنوثة مشحونة. يداعبن نورًا بقفزاتهن. أشعر ببعض الغربة. لكني أداري. بهجتي لا تذهب.

بهجتي لا تذهب عند الاستيقاظ. أفكر في النذر الذي أقدمه عندما أحصل على حريتي.

* * *

تعد دارية الأيام الباقية لها في ألمانيا. تدخل تعديلات على بحثها في ضوء ملاحظات سابينا. تقابل زميلاتها وزملاءها ويتناقشون. تسافر إلى فرانكفورت لتشاهد متحف «جوته» وتحضر عرضًا مسرحيًّا مهمًّا. يرتبون رحلات نهاية

الأسبوع إلى «شباير» حيث الكاتدرائية القديمة ومبانٍ لم تُدَمَّر أثناء الحرب العالمية الثانية. تصحب نور معها في كل مكان. لا تفوتها دروس الإيروبكس التي تكثف إحساسها بافتقاد دروس «أنجيل» في القاهرة؛ حيث تختلط سيول العرق مع ضحكاتهن. موسيقى الجاز مع «توبة» عبد الحليم ودقات الزار ونغمات تشايكوفسكي. وأجسادهن تتلوّن بنغمات الموسيقى المختلفة وبذهب أرواحهن القوية. في «جرمارسايم» تنفخ دارية في ميكانيكية التمرينات روح ذاكرتها. «سأعود سريعًا إلى مصر».

تذهب مع سابينا إلى معرض «لي تسو» في ميونيخ. لوحاتها مائية. تغلب عليها شفافية الأخضر وخصب رموز الحياة. الدائرة. الوردة. السمكة. على خلفية قرى الصين ودأب أهلها. التقطت صورًا لبعض اللوحات. وسجلت حديثًا مع الفنانة. وفي كل اللحظات تطاردها عينا «مهرة». تسقط على وجهها كتلة الضوء التي تركض في

اتجاهها. وقد قاربا لحظة الالتحام. تُحَدِّث نورًا تلفونيًّا. تجده مرة. وتفشل في العثور عليه مرات. تترك له رسائل مُسجَّلة. لا يرد. «مشغول يا دُرَّة. باحضَّر لمعرض الأسبوع الجاي». تسمع دفء صوته. تنسى غضبها.

وافقت سابينا على شكل البحث النهائي. سينشر في مجلة «قلعة الفنون» بعد أن يترجم إلى الألمانية.

- وهابعت لك نسخة.

- إبعتي لي أخبارك وأخبار سباستيان وتيمو. و«جرمارسايم».

- إيه أخبار نور؟

- في مصر. ومشغول جدًّا.

- تعرفي يا دارية. أنا قريت كتير عن نساء مصر الفرعونية. قدرتهم على صنع الحياة وقوتهم. دلوقتِ الصورة دي اتأكدت لي بيكِ.

- هاشوفك في مصر المرة الجاية.

* * *

أقود السيارة في طريق منحدر على شكل سلالم معبد قديم. تنحدر السيارة بسرعة. تنقلب. أنفلت إلى الخارج. تطير العجلتان الأماميتان. أضحك. لكني فجأة أشعر بالفزع عندما تتطاير شرارات تنذر الجمع الموجود بانفجار وشيك. يجرون. أجري. تنفجر السيارة ونحن نجري. لا أحد يُجْرَح. أشعر بالحزن على السيارة. ماذا سأفعل بدونها؟ أشعر بالذنب. ربما كان يجب أن أفحصها بشكل دوري.

أجدني في قصر فاخر في وسط الصحراء. زمن آخر. جارية تمسك بطفل صغير. يجيئنا إنذار بهجوم عسكري. نجري في طريق مفتوح لأعلى. آخذ منها الطفل حتى تستطيع الصعود. أعرف أنها حبلى. وأعرف أنها ستموت. أسألها عن اسم الطفل القادم حتى أنفِّذ لها طلبها الأخير. تقول:

«هبة».

يستند أبي وهادية وأنا إلى سور خشبي مهترئ حول سطح منزل عالٍ. أشعر بالرعب من انهياره في أي لحظة. هادية تقول: «ماتخافيش أنا واخده بالي».

أجدني في مطبخ. أسبب حوادث عندما آخذ طعامًا من الثلاجة. أشياء تتكسر. والدة سيف موجودة. أشعر بها تراقبني. متضررة.

أصحو على قلق ما. وموجة اشتياق لحضن أمي. هادئ. رحيب. أقرأ الفاتحة على روحها. أذهب إلى المطبخ. أدس أنفي في علبة البن. أستنشق عبق قاهرتي.

* * *

سِخْمتْ

في الطريق إلى «١٥ مايو» تتدافع في ذهن دارية صور الذكريات. تتلون برماد غبار الأسمنت. ورائحة كيماويات المصانع. «أف. إيه الريحة دي يا مامي؟». أمينة ابنة السنوات الأربع تسأل. وسيف يُعَنِّفُها بسبب إهمال ما. ومطبـات الطريـق تَـرجُّ روحها بعنف. رائحة مواسير المجاري تصب في مجرى رفيع بين حافة الطريق والأرض الزراعية. هدير سيارات النقل المحملة بالطوب الأحمر. كلمات سيف ثقيلة. الجنود في سواد كالح فوق أسوار سجن طرة الحجرية. إلى اليمـيـن ينسال وجه أوزوريس المثقل بالحزن ونفايات المصانع. وتَـكلُّس البشر. فتحت لها الباب والدة سيف. بينهما صمت مشحون. جرت أمينة إليها.

- كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبة ماما. عشر سنين بحالهم.

احتضنتها. واحتضنت جاسر وصفصافتها العجوز. نظرت إلى الأوراق الكالحة في حنان. «أنا لم أتركِكِ أيتها الغبية. أحملك أينما ذهبت».

- أمينة. آ آ. ماما جابت لي هدية زيك مع إنه مش عيد ميلادي.

- وإيه يعني. إنتَ هتغيظني!

حاصرتها الجدران بذكريات جميلة. ومُرَّة. لم يعد مكانٌ لها.

- ها يا دارية. أعصابك هديت؟

- الحمد لله.

- وقررت إيه؟

- قراري واضح من زمان يا سيف.

- يعني انتِ اللي عايزه تسيبي.

بدأ الدم يفور في عروقها.

- أنا اللي عايزه أسيب يا سيف؟! إنت مصدَّق. طب الكلام ده قوله للناس، مش ليَّ. إنت عارف إنك حطيت خنجر في ظهري. ماحدش شافه. كل اللي شافوه إني ست مجنونة مِشْيِتْ
وسابت عيالها.

- البايع خسران يا دارية. أطَلَّقك وبعدين أفكر أديلك إيه.

- المسألة بقت إننا بنتخانق على فلوس؟ إنت متقدرش تعوضني عن سنين عمري وصحتي وأولادي. وكل اللي استثمرته في العلاقة.

- سكة المحاكم مش هتوصلك لحاجة يا دارية.

- أنا مش عايزه مؤخر ولا نفقة. هاخد العفش وأولادي ومصاريفهم.

- بمزاجي يا دارية. مش بالعافية.

انتفضت واقفة. ذهبت إلى الطفلين. يلعبان بالبالونات الملونة مع أصدقائهما. قلبها ينزف.

- الجمعة الجاية نروح النادي.

- إنتِ ليه مش عايزه ترجعي يا مامي؟ مش بابي قال: آسف؟

- مش بالبساطة دي يا أمينة.

- الأُمّ لازم تضحي علشان أولادها يا مامي.

- حتى لو عاشت معاهم ميتة يا أمينة؟ بكره تكبري ونقدر نتكلم.

ما إن أدارت دارية محرك السيارة حتى انفجرت في البكاء. يعتصرها ألم ذروة المُر. «لا. المُر. أن أنظر إلى العالم المعتم من وراء قضبان شرفتي القديمة. وأكتفي بالنظر».

هل تخذت الغاب مثلي	منزلًا دون القصور
فتتبعت السواقي	وتسلقت الصخور
هل تحممت بعطر	وتنشفت بنور
وشربت الفجر خمرًا	في كؤوس من أثير

ما أجملك يا فيروز. الآن.

أدارت قرص التلفون. تطلب نورًا. أمل ضعيف يراودها أن تجده على عكس المرات السابقة.

- دُرَّة حبيبتي. وحشتيني.

- ليه مش بترد على الرسايل اللي باسيبهالك يا نور؟

- مشغول يا دُرَّة. عندي معرض في سوهاج ومسافر ألمانيا الأسبوع الجاي.

- نور. أنا ماشفتكش من وقت ما رجعت من

ألمانيا!

- أشوفك بكره.

تبتلع مرارة الدهشة. والوحشة. وبعض الاغتراب.

*** * ***

أجلس إلى مكتبي. أقرأ أحد أجزاء «الفتوحات المكِّية». أشعر فجأة بغثيان. أهرع إلى الحمام الملاصق لغرفتي. معدتي تفرغ ما بها. يهبط عليَّ يقين أنني أحمل طفل نور داخلي. أفزع. ألوم نفسي على هذا الإحساس. لكن في ظروفي الحالية. «لا يمكن». سأجهض نفسي. سأقتل طفلنا يا نور. هل أخبره؟ هل سيوافقني؟ أليست خيانة له ألا أخبره. كنت أحلم أن أهبه طفلًا.
هل أمامي اختيار؟

يجيء نور فيراني أنظِّف سلم منزل أبي

المؤدي إلى الحديقة. يغضب ويطلب من شخص لا أعرفه أن يقوم عني بالمَهَمَّةِ. أنا لا أمانع. طالما قمت بتنظيف المنزل بنفسي. لكني سعيدة باهتمامه.

أصحو على انقباض صدري. ولون الهواء المُصفّرِ. عاصفة خماسين قاسية. أغلق كل نوافذ المنزل لأمنع تسرب الرمال إلى الداخل. أشرب قهوتي وأنا أراقب دوامات الهواء الملوث بحزن أحاول تجاهله. على طرف لساني لذعة ملح الغد المنذر.

* * *

عندما وصلت دارية إلى سطح المنزل القديم في حي القلعة، كانت تلهث. قلبها يدق بعنفِ صعود الطوابق الخمسة. وبهجة اللقاء. ابتسم نور:

- أمّال إيروبكس إيه بس وعضلات؟!

دلفت من الباب الخشبي المتهالك إلى

غرفة صغيرة. مكدسة بلوحات نور. نصف منتهية. أنابيب ألوان وباليتات على أرض مبلطة رمادية. قطع قماش تحمل بقاياً الزيوت والألوان المائية. أكواب شاي وفناجين قهوة لمْ تغسل بعد. وكنبة إسطامبولي تحت النافذة الصغيرة المطلة على مآذن «محمد علي».

- حاسة إني باحب المكان ده من قبل ما اتولد.

- ألوانك جميلة يا دُرَّة. الفستان الموف بيعكس على عينيكِ ضوء غريب. تعالي. شوفي.

سلط نور ضوءًا على لوحة فوق الحامل. دارية في فستانها البرتقالي. على حافة بحيرة نيلية. تحوطها الأعشاب البرية وشجيرات الجوافة. تستلقي على الأرض الخضراء باسترخاء. يسقط ضوء شمس برتقالية على نصف الوجه الأيسر للبؤة ذات شعر ذهبي ونظرة ذاهبة إلى البعيد.

ابتسامة الشفتين لا تخفي حزنًا ساكنًا في عينيها العسليتين الصامتتين. رغم البوح. يغلب على اللوحة هدوء أخضر المكان وبرتقالية الغروب. قال وعلى وجهه فرحة طفولية:

- «نفتيس» حامل في قصيدة جديدة.

- جميلة يا نور. دي أنا فعلًا. إنتَ سميتها «نفتيس»؟

- إيه رأيك؟

- طبعًا.

ذهبت إليه. لبدت في دفء حضنه. وتشبثت برائحته. لم تزل تدور مع دوامات الحزن.

- مالك يا دُرَّة؟

- أنا محتاجالك يا نور. ومش بالاقيك. محتاجه أبكي قدامك. أقول لك قد إيه إنتَ

واحشني. قد إيه الولاد واحشنِّي. لما كان جاسر بيشبط يروح معايا وأضطر أسيبه، كنت باتألم، ودلوقت لما اتأقلم وبقى يقول لي: «باي» من غير ما يزنّ، باتألم أكتر. زي ما أكون مش عايزاه يقطع الحبل اللي بينه وبيني. زي ما يكون بقى راجل كبير فاهم. مضطر يقبل أوضاع مش حاببها، لكن أنا وأبوه فارضينها عليه. وأمينة بتبعد يا نور. بتردد كلام بتسمعه ومش فاهمه معناه. ومش هاعرف أفهمهم حاجه دلوقت. مش عايزه ألخبطها أو أجرح صورة أبوها قدامها.

- مش عايز أشوف الحزن ده على وشك يا دُرَّة. كله
هيبقى تمام....

يدق جرس التلفون. يذهب نور إلى ركن الحجرة. فتحاصرها الوحدة. جلست القرفصاء على الكنبة. نور قلعة الجبل يبدو كابيًا. وظلام الخارج يحمل داخل أحشائه أشياء. ولايبوح. تكتب. وتترك له ورقة مطوية بالقرب من حامل لوحاته:

لماذا

تراوغُني دومًا

يفلتُ طيفُكَ

من بين أصابعي

ينزلقُ بعيدًا

مع شلَّالِ الماءِ الجاري

بين غيماتٍ تتقاطعُ

في مفارقِ الرُّوحِ.

أحيانًا

أمسكُ بِكَ داخلي

تغمُرني أطيافٌ قزحية،

أتلوَّنُ

بهجةَ برتقالية

وأطيرْ.

أفتحُ عينيَّ في قلبِ البهجة

أراكَ

تنزلقُ مع تيار الماءِ المنساب

أراني

بنفسجة شاحبةً

في ليلٍ ساكنٍ وحيدْ.

*** * ***

أنا مع نور وسط جمع من الناس. أجلس في مواجهته. يدور بيننا جميعًا حوار هادئ. جميل. ويدور بيني وبينه حوار صامت. لا ينقطع. أنظر إليَّ في مرآة عينيه. فأراني. أنا «دارية» في اكتمال ينشر فوق الحضور

جناحين كبيرين. ريشهما حنان. أدَوِّن أشياء في ورقة بيضاء على حِجْري. يدخل رجل لا أعرفه. يتجه إليَّ. يميل في اتجاهي ويهمس في أذني أنني يجب ألا أجلس بهذه الألفة في مواجهة الباب. أرد عليه بصوت مسموع. رافضة في غضب هادئ. حاسم. نبرته المتعالية كأنه يتفضل على تلميذة بنصيحة غالية. يصمت الجميع. يتابعون بشغف، وبعض الرهبة. تمسَّكي بموقفي. يهتز الرجل. أرى في عينيه تصدع ثقته بنفسه إثر رد فعل لم يحسب له حسابًا. يمتقع وجهه ويترك المكان. نور، صامتًا، يتابع الموقف. يرى للمرة الأولى دارية أخرى. يداري اندهاشًا خفيفًا. وإعجابًا.

عندما أصحو أفتح نافذتي لشجرة الليمون. ألمح بجانبها أول زهور شجرة الياسمين الهندي الصغيرة التي زرعها أبي. أهبط إلى الحديقة. أحتضن رائحة أمي النفاذة في قلب الزهر الأبيض ذي الخطوط الصفراء الشاحبة.

* * *

- فين أمينة يا جاسر؟

- خرجت مع تيته.

تبتلع مرارتها وتسأل:

- عايز تروح فين يا حبيبي؟

- جنينة الحيوانات.

أمسكت دارية بيده الصغيرة. وهو يقفز. يتركها ويجري. يسأل عن الفيل:

- ليه عنده زلومة كبيره كده؟

- ربنا خلقه كده. مش بتفكرك الزلومة بحاجه؟

- حاجه إيه؟

- قصة إنت بتحبها.

- آه. «بينوكيو» ومناخيره الطويلة.

- لما بيكدب.

قضيا اليوم معًا. والحديقة غير مزدحمة. الشمس ساطعة. وبعض الحيوانات مريضة، أو نائمة. التقت عينا دارية بعيني اللبؤة. متعبتين. لكنهما تستبقيان لمعة قديمة. ابتسمت.

عندما عادا إلى المنزل للغداء احتضن جاسر جَدَّه. وبدأ في اللعب بدراجته. ثم بالصلصال. يكوِّن به أشكالًا دقيقة. فتصفق دارية ويصفق الجد. اقترب جاسر من دارية. مستلقية على السرير.

- ماما هو انت مش هترجعي؟

- تعالَ يا جاسر. عايزه أتكلم معاك.

اقترب بتردد. كأنه يعرف أنه يتحسس فوهة بركان. جلس على طرف السرير.

- مش هينفع يا جاسر أرجع البيت. أنا وبابا مش زي بعض. كل واحد مننا بيحب حاجات غير التاني. لكنا إحنا الاتنين بنحبكم إنت وأمينة أكتر من أي حاجة.

- وأنا لوحدي بافكر فيكِ. وبازعل. وبعدين مامة أحمد وباباه عايشين مع بعض.

- علشان مبسوطين مع بعض يا جاسر. لكن لما أنا وبابا بنبقى في نفس البيت بنبقى مش مبسوطين. جاسر هي أمينة مش بتيجي معاك ليه؟

وادرية تحاول إغلاق بوابات سد الملح. وجاسر يعرف.

- ماتزعليش يا مامي. أنا هاقول لها تيجي.

سالت دموعها. فبكى.

- لا يامامي. مش عايز أشوفك بتعيَّطي. عايز أشوفك قوية. أقوى ست في الدنيا.

وسحبها إلى الحمام. فتح الصنبور.

- يلّا اغسلي وشك يا مامي.

عندما عادت دارية من المدرسة، فتح أبوها باب المنزل:

- سيف باعت لك إنذار بالطاعة. ولا يهمك. الحرية مش
ورقة يا دارية.

بطريقة ما لم تندهش. كانت تعلم أن من الممكن أن يلجأ إلى هذه الحيلة القديمة. لكنها شعرت بالحزن. وبعض الغضب:

-ديننا دين سماحة وحب. مافيهوش حاجة اسمها «طاعة». دلوقت راجل في نهاية القرن العشرين هيستخدم الطاعة ليه؟ يا إما عايز مراته. ودي حاجة مش بالعافية. هيحس برجولته يعني لما البوليس يجيبها له من قفاها؟ يا إما بيهددها علشان تتنازل عن حقوق مادية. وفي الحالتين..

أنا هاكلم هادية يا بابا. عايزه أروح الحسين.

لم تتبادلا حديثًا في السيارة. وعندما انحرفت دارية يمينًا قبل مدخل جبل المقطم:

- هنقرا الفاتحة لسيدي عمر بن الفارض.

لم تتركا السيارة. وإنما وقفتا هناك... أمام النوافذ المضيئة للجامع الصغير. يغمرهما السكون. وأبيات شعر تتطاير في سماء المكان:

تَراهُ

إن غابَ عنِّي كلُّ جارحَةٍ

في كلِّ معنى لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ

في نغمةِ العودِ

والناي الرخيمِ

إذا تآلَفا بين ألحانٍ من الهَزَجِ

وفي مسارح غزلانِ الخمائل

في بَرْدِ الأصائِلِ والإصباح

في البَلَجِ

وفي تَسَاقُطِ أنداءِ الغمام

على بسَاطِ نورٍ

من الأزهار مُنتَسِجِ

وفي مَساحِبِ أذيَالِ النسيم

إذا أهْدَى إليَّ سُحَيْـرًا

أطيبَ الأرجِ

وفي التثامي ثَغْرَ الكأس

مرتشِفًا ريقَ المُدامَةِ

في مُسْتَنْـزَهٍ فَرِجِ

لم أدْرِ ما غربَةُ الأوطان

وهو معي

وخاطري أيْنَ كُنَّا

غير منزعجِ

صعدنا الدرج القديم. يعلو فاترينة زجاجية للبسبوسة والكنافة الساخنة. دلفنا من الباب الخشبي الكبير بنقوش نحاسه العتيقة. جلسنا في المسرح الصغير بوكالة الغوري. تلف عيونهما مع التنورة ذات الألوان الكثيرة الزاهية. لا تكل عن الدوران. تعلو. تهبط. وتدور. على دقات الطبول العنيفة وصلصلة الصاجات النحاسية. تسحب روحيهما من تعدد الألوان القزحية، إلى اللون الواحد. الأبيض. لون الروح. والموسيقى ترجُّ المكان. وتشحذهما. تطير بأنفاسهما مع خفق

التحليق.

وعندما تعبران كوبري المشاة إلى شارع المعز، يغمرهما فجأة السكون. فتتداعى صور قديمة وأسئلة حاضرة. وأفكار.

- عمري ما ازهق من المكان ده أبدًا..

- المكان الوحيد يا هادية اللي باعرف أتنفس فيه. باحس إن صدري واسع. والهوا بيدخل بسهولة.

- حتى محلات البصل والتوم والليمون. جزء من المكان.
مش بتضايقني.

تقتربان من نهاية الشارع الطويل. مسجد «الحاكم بأمر الله».

- تعرفي يا هادية مش ده أفخم الجوامع في الشارع. متجدد وكله رخام. جدرانه نضيفه ولونها فاتح؟ لكن فيه حاجه راحت منه. إيه هي بالظبط؟ مش عارفه؟ حاجه

ما عدش يقدر يديها لي زي الجوامع التانية اللي إيد الزمن لسه مرسومة فوق جدرانها.

جلستا على الرصيف الحجري في قلب «باب الفتوح» السميك. أخرجت هادية سكتش الرسم. وبدأت تخط بالفحم بابًا حديديًّا عتيدًا. مفتوحًا. يعلوه برجان سميكان. غرف للجند وفتحات رمي السهام. وفتحة تصب السوائل الكاوية على الغزاة. ودارية بجانبها. مغمضة العينين. تتنفس.

- إيه أخبار نور؟

- بعيد يا هادية. دايما مسافر. ولو موجود باحس إنه مش بيقدر يبص جوه عنيا. عندي إحساس إنه مخبي عني حاجات. عمره ما بيتفتح معايا ويتكلم. عمره ما بيقولي إنه محتاج لي.

- بتغيري عليه يا دارية؟

- يمكن. باغِير إنه مش بتاعي. مش قصدي أتملّكه. ده فنان حر بطبيعته. أنا أكتر واحده ممكن تفهم ده. لكن فيه نوع من الانتماء لازم الاتنين يحسوه تجاه بعض.

- إنت لسه جرحك ما قفلش يا دارية. خللي بالك على روحك.

* * *

عروس تلبس ثوب زفافها الأبيض. ترفع ذيل الثوب الطويل. فتكشف ساقها اليسرى. محروقة بشكل طولي من الداخل. حرقًا غير قديم. طبقة الجلد الخارجي مسلوخة تمامًا. تكشف عن طبقات اللحم الأحمر وزرقة العروق. ترفع العروس ساقها فوق مقعد. وتتولى امرأة مهمة ترميم الجزء المحروق بكريم أساس وبودرة ماكياج بلون الجلد. أراقب المشهد. أعرف أن ما يحدث خطأ لأن الجرح لابد أن يُعالج أولًا، لا أن يُغطى فحسب. تضع المرأة البودرة على سرير الزفاف. فتتلطخ

الملاءة البيضاء.

عندما أصحو، أسترجع الحلم. أستعيد شكل الساق. مرة. ومرة. ومرة. إنها ساقي أنا. أنقبض. وتختنق القاهرة كلها من رائحة تراب الخماسين. يغطي أوراق الشجر. ووجه البيوت. والأرواح المتعبة. «متى.. يا سيف؟».

* * *

جلست دارية على المقعد المجاور لنور. والسيارة تشق قلب أخضر الحقول. في اتجاه المنيا. شمس ربيعية وديعة تدلل قسمات وجهها الفرح. ويضوِّي شعرها البني الطويل في الضوء. تستحضر ذاكرتها الرحلة إلى قرية «سانت مارتن» وطريق النبيذ بطول الخمسين كيلو مترًا. وعنف بهجتها. تنهل رئتاها من رائحة الصباح. تستعجل الوصول حتى تخبره. يداها تتلمسان الظرف البني على حجرها. نبض ما يصل بين قلبها وبينه. عند مدخل القرية

أبطأ نور من سرعة السيارة. والفلاحون يستوقفونه:

- كيفك يا خال؟ وحشتنا كتير. لازم تتفضلوا.

ترك السيارة عند أول الحقل العريض. مَشَيَا على ممر ضيق بين عيدان الذرة الخضراء الطويلة. تندفع دارية في اتجاه انسياب النيل بقوة شوق قديم. مجراه عريض. يطفو فوق بعض أجزائه «ورد النيل». والضفة الأخرى بعيدة. تتناثر عليها نساء يغسلن الصحون والملابس. وصلا إلى عشة خشبية سقفها نخلة طويلة. عند انفتاح الباب الصفيح الصدئ تبدو العشة أكثر اتساعًا من الداخل. يتوسطها جذع النخلة. يستند إليه حامل الرسم. لوحات مكدسة في الأركان. نصف منتهية. أو مجرد خطوط بالفحم. أنابيب ألوان. قطع قماش يبقعها الأزرق والأسود. وسرير خشبي قديم في ركن الغرفة. فوق طاولة مربعة ترقد أكواب الشاي والبراد وموقد كيروسين.

- اعزميني على شاي يا دُرَّة.

تلفتت تبحث عن مكان تغسل فيه الأكواب والبراد. ضحك نور:

- استخدمي المنبع على طول.

حملت دارية الصينية. تمر من أسفل شجرة «أم الشعور» المتدلية بدلال فوق سطح المياه القريبة. تمسح وجهها في نعومة حنانها الأخضر. عندما مالت فوق الماء، أدركت أنه رغم عشقها للنيل فهذه أول مرة تتعامل مع مياهه مباشرة. قرفصت ساقيها فوق الطمي الطري. والماء يداعب قدميها بخفة. غسلت الأكواب. ونثرت ماءً على وجهها وذراعيها. ملأت أحد الأكواب وذهبت لنور. تغمس إصبعها في الماء. وتمسح على وجهه. مبتسمة:

- أعَمِّدك بالماء المقدَّس وبقوة الحب الإلهي. بوجه أوزوريس بن

نوت وروح إيزيس وجوهر ماعت الكامن فيك.

جثا نور على ركبتيه ممسكًا بيد دارية. طبع عليها قبلة. وأحاط خصرها بذراعيه. ضاغطًا برأسه على بطنها. مالت برأسها عليه. فانسدل شعرها وغطى رأسه. أحاطته بذراعيها. يسيل منها حنان لبؤة تحتضن وليدها.

دست أنفها في شعره. تستنشق. ونسمات ربيعية باردة تحمل رائحة العشب الطري تهب من الشمال.

ركعت دارية أمامه. تلاقت عيونهما. مَرَّ نور بفرشاة أنامله فوق جبهتها العريضة، عظام وجنتيها البارزتين، أنفها الدقيق وشفتيها المرتعشتين. كأنه يعيد خلق ملامحها. يجعلها له. تغمض عينيها على رقة أصابعه. فينتقل صخب الحياة في العالم خارج العشة إلى المسافة الفاصلة بينهما. لا تفتأ تضيق حتى تتلاشى. تقف

عقارب الزمن. ويرين هدوء يتردد فيه صوت أنفاسهما وتتاليات ارتطام الماء الرفيق بطمي الحافة اللَّدن. تنظر إليه أسفلها. تلتحم عيونهما وشعرها البرِّي ينسدل. فيحتوي وجهه الطفل. تتساقط بلورات الملح الشفافة من عينيها فوق شفتيه. فيبتلعها. تتسلل إلى أنفها رائحة عرقه الحميمة. تتكثف مع هدير الجسد. تعلو موجة مد العشق. وتعلو. ويلتحم العصفور بوهج الشمس. فيتطاير
الزغب الأبيض.

ويشق نصل صرخة الروح قلب السكون.
ونور يشد جسدها المنتفض إليه. يلملمها.

ينبعث صخب العالم مرة أخرى إلى الحياة. يعود الزمن إلى دورته. وروح دارية ترتج بنشيج التحقق المكتوم. والخوف من الفقد. تحيط رأس نور بذراعيها وتشده إليها، وتقَبِّله، لا تعرف إن كان طعمٍ ملح وجهه على شفتيها عرقًا أو دموعًا. لا تسأل.

متداخلان. ناما بعمق البراءة الأولى.

مع نسمات العصر الطرية وضعت دارية صينية الشاي أسفل «أم الشعور». يفصل بينهما والماء سنتيمترات. تربعت وأسندت ظهرها إلى جذع الشجرة الرءوم. بعد أن صبت لهما كوبين، أخرجت الديوان من الظرف ووضعته في يد نور. أمسكه بفرحة طفولية:

- دُرَّة. الكتاب خِلِصْ. معقولة؟! جميل يا دارية. جميل.
إنتِ عفريتة.

عندما فتح الصفحة الأولى، طالعه الإهداء:

- «إلى نور عتمة حلمي». إيه الإهداء الجميل ده.

- نفسي أصدق إنك حقيقة يا نور.

- تاني دموع يا دارية؟

- مش عارفه. حاجة جوايا بتقول لي متصدقيش. حتى لو حلم مش هيبقى طعمه حلو كده.

- إحنا هنا دلوقت. واللحظة دي من حقنا.

- لحظة.....

- ...

- ساعات أقول لنفسي: سيبي نور براحته. لما يحب يتكلم معاكِ هيتكلم. وساعات ألاقيني كتاب مفتوح قدامك وأنا ماعرفش انتَ مين.

- عايزه تعرفي إيه؟ ما عنديش أسرار.

- تاني أسرار يا نور. عايزه أعرفك انت. إيه اللي بيدور جوه الدماغ دي؟ حياتك كانت إيه؟ شايف بكره إزاي؟

- بكره هواللوحة اللي هاخلصها.

- وبس يا نور. وأنا إيه بالنسبة لك؟

- أنا باحبك. وباحترمك يا دارية.

- وبعدين..؟

- ...

- إنت ممكن تكون بتحبني يا نور. لكنك رافض تربط حياتك بإنسانة تانية. حاسس إن احتياجي ليك قيد.

عاد نور إلى قرض أظافره. يتظاهر بالهدوء:

- أنا فنان. كائن حر.

- وأنا كمان فنانة. ودفعت تمن غالي قوي علشان حريتي. يعني مش ممكن أقيدك.

- ما انت بتقيديني كده يا دارية لما تطلبي تعهدات وتحطي شروط. أنا ما احبش حد يطلب مني. أحب أدّي لما أكون مستعد.

- باقَـيِّدَك يا نور لما أقولك محتاجالك؟ عايزه أحس بوجودك جنبي. وبعدين هنفضل نحب بعض من بعيد لبعيد وبس. إنت يا إما مسافر يا إما مش موجود. هو انا عارفه أشوفك. إسمع، أنا عندي مشاكل مع فكرة الجواز. لسه جرحي ما قفلش. لكن عايزه
أتخطاها علشانك.

- ما فيش أجمل من إنك تكوني حرة.

- هي الحرية يا نور إننا نعمل اللي في مزاجنا؟! ما انت ممكن تكون حُرّ في أفعالك. في جسمك. لكنك عبد لأفكار أو عقد قديمة مش عارف تتخطاها.

انتفض واقفًا وقد تداعى قناع الهدوء من فوق وجهه:

- السِّتّ بالنسبة لي كانت دايما مصدر إلهام في لوحة وألم في الحياة. أمي جرحتني لما سابتني لحد تاني يربيني

علشان تتجوز. وهيلين قتلتني لما خبت عني إنها خَلِّفتْ مني بنت ورفضت تكتبها بإسمي علشان تكبر ألمانية وما حدش يضطهدها بسبب أبوها الأسود. ويبقى لي بنت من صلبي لا قادر أشوفها ولا أحضنها. باتريسيا دلوقتِ عندها واحد وعشرين سنة. ومتجوزة. وخلفت. يعني أنا جد لا قادر أشوف حفيدي ولا عمري قابلت بنتي غير في صورة وعنْدها سنتين. يعني لو شفتها في الشارع مش هاعرفها. خلاص يا دارية. عرفتِ اللي كنت عايزَه تعرفيه؟ أيوه باحبك. لكن مش عايز أحتاج لحد يخذلني. عمري ما هاسعدك زي ما عمري قدرت أسعد أي ست. وكلها كام يوم وهتقرري تسيبيني. الرسم هو الحقيقة الوحيدة. الباقي عدم.

- الفن حياة يانور. لكن مش كل الحياة. فيه حياة تانيه لازم نعيشها زي بقية الناس. نحب ونتحب ونحس بالانتماء لبعض. وده بيثري فننا برضه. الفن مقاومة الألم. سمو فوقه، مش هروب منه. وبعدين كل واحد

مننا عايش بألمه. لكن ما اقدرش أفضل ألوم الناس وما صلّحش من نفسي. يا نور «من أصلح جوَّانيه، أصلح
اللّٰه برَّانيه».

ذهب نور بعينيه بعيدًا. إلى الضفة الأخرى. ثم انسحب إلى المرسم. أحضر سكتش الرسم. قلم فحم. وبدأ يخط ضفتين ومركبًا بينهما. ويقرض أظافره.

و... فهمت دارية.

* * *

أنا في ألمانيا. تسير السيارة في شوارع المدينة الضيقة. أشعر بالخوف. سقف البيوت الأحمر مُوازٍ لمستوى الشارع. إن حادت السيارة عن استقامة الطريق الضيق فسوف تخترق أسطح البيوت الهشة. أنام في أحد هذه البيوت. أفتح عينيَّ على صوت أمي. آتٍ من بعيد. بوضوح. تتلو سطورًا أحبها لجبران. على

صوت ناي نبيل:

مثلما يكون الحبُّ لكم تاجًا

يكونُ لكم صليبًا

فهو إذ ينمِّيكم

يُشذِّبكم كذلك.

أهرع إلى الشرفة. أبكي في وجه العتمة المطبقة. تأتي امرأة لا أعرفها. تربت كتفي. كأنها تقول: «أنا أفهم». أعرف من أصحاب المنزل أنهم وجدوا لديهم هذا الشريط. وسينسخونه لي. بالفعل يضعونه في كاسيت مزدوج لديهم. عندما أفتح الجهاز لأتأكد، أجد شريطًا مختلفًا. لابد من العودة لمصر. آخذ منهم وعدًا بإرسال نسختي إليَّ.

أثناء خروجي من المنزل أشاهد عصابة من ثلاثة أشخاص. يقفون على رأس الطريق الضيق. يحاصرون من يمر وفي

أيديهم مناديل بها مخدر. أشاهد الحادث يتكرر. في المرة الأخيرة أصرخ عاليًا طلبًا للنجدة.

أفتح عيني على رائحة قلق ما. سرعان ما يغمره اشتياقي لألمانيا. البيوت الصغيرة الأنيقة. وزهور نوافذها. انحدار الشارع الطويل إلى الراين. ووجه نور بالقرب مني. وذراعه حول كتفي. أفتح درج مكتبي. أنتقي كارتًا. لوحة قديمة للنيل. ومن بعيد الأهرامات تلوح في الأفق. أكتب لسابينا: «أشتاق إليك. وللراين. قبِّلي لي سباستيان وتيمو».

أسترجع سطور جبران كما كانت تتلوها أمي. «مثلما يِكون الحب لكم تاجا/ يكون لكم صليبا». أُقَـبِّل روحها الجميلة. أقرأ لها الفاتحة. «وصلتني الرسالة يا ماما. وصلت».

* * *

أنهت دارية امتحان دبلوم النقد الفني. وقررت أن تحتفل مع الطفلين. جاء جاسر واعتذرت أمينة. لـم تَـلُمْها دارية.

- مامي إنت لسه في حضانة بتذاكري؟

- لازم أفضل أذاكر يا جَسُّور. أتعلم حاجه جديدة كل يوم.

- أنا كمان باذاكر والميس بتقول عني شاطر.

وذهبا إلى النادي. بدا جاسر نحيفا في المايوه الأزرق الصغير. ترى دارية وجهه شاحبًا. تُقَبّلُه.

- شايفه العضلات يا مامي؟

تضحك:

- شايفه طبعًا.

بدأ يجري. يقف على الحافة. ويقفز داخل

حمام السباحة. يتأكد كل مرة أن دارية تتابع المشهد بشغف.

- بصي بقى هانط مسمار.

ويصلب جسده النحيف. يرتفع وينزل في الماء كالعمود الثابت.

فتضحك دارية. ويخرج من الماء. يجري إليها مرتعشًا فتلقي عليه بسرعة فوطة كبيرة. وتأخذ جسده المبتل في حضنها حتى يدفأ.

- جعان.

وفي طريقهما إلى البيت:

- عايز حاجه بلاستكه.

- يعني إيه حاجه بلاستكه؟

- يعني. يعني لعبة كده. أي حاجه.

- بس أنا لسه ما قبضتش من المدرسة يا جاسر. مِفَلِّسه يعني.

- حاجه مش غاليه.

فتتوقف دارية عن المقاومة. ويذهبان إلى محل اللعب. يرن في أذنيها صوت سيف: «إنتِ فاكره تقدري تشتري أمينة بشوية كراكيب؟». كان جاسر منتشيًا لأنه سيبيت في حضن أمه. وقف يلعب تحت ماء الدش.

- حاسب تتزحلق.

ودارية مستمتعة بدعك جسده بالصابون. وتنظيف شعره وشطف أذنيه بالماء. وهو يغني. ويضحك. ويهز وسطه. يخرج لسانه بعد أن يشد أذنه. ويرقص. عندما وضعته في السرير كانت جلبته مستمرة. جاء جده وجلس على طرف السرير. وجاسر يحكي آخر نكتة:

- مرة واحد اسمه «مالكش دعوة». وأخوه

اسمه «مُخْ». المدرس سأله: «إسمك إيه؟». قال له: «مالكش دعوة». قال له: «إزاي ماليش دعوة؟ بقول لك اسمك إيه؟». قال: «مالكش دعوة». طلب أبوه ييجي المدرسة. سأله: «ابنك اسمه إيه؟». قال: «مالكش دعوة». سأل أمه. قالت له: «مالكش دعوة». غضب وشخط في الولد: إنت ما عندكش مخ». قال له: «لأ. خرج راح السوق».

- فظيعة يا جاسر. قصدي جميلة يعني.

وثلاثتهم يضحكون.

- الله سريرك جميل يا مامي.

حضنته. واستنشقت رائحة شعره. ووراء أذنيه.

- عارفه يا مامي. إحنا غيرنا شكل البيت. نقلنا التلفزيون في الصالون. والسفره مكان أوضة أمينة.

- والمكتبة يا جاسر؟

- ما تخافيش يا مامي. الكتب زي ما هي.

للحظة تداخلت جملة جاسر الأخيرة مع حلم لها. ليس قديمًا.

- إنت عارف إني حلمت بيك حلم جميل؟

- إزاي؟

- كنت واخدني أوضتك وبتقول لي: «هو ده بقى مكتبك يا مامي». وأنا كنت مبسوطة.

- ليه؟

- علشان حسّيت إنك عارف إني باحب الكتب.

- آه نسيت. أنا راسم لك صورة.

قفز من فوق السرير. وأتى من فوق المكتب بورقة بيضاء كبيرة. رسم عليها

بالقلم الرصاص صورة فتاة تلبس شورتًا. تقف فوق حلبة مصارعة تسورها حبال. حولها رؤوس كثيرة العدد. وقد طرحت أرضًا غريمها صغير الحجم. ترفع يدها بكأس وحول رقبتها ميدالية.

- مامي أقوى واحدة في الدنيا.

* * *

أشترك في تمثيل فيلم. أثناء الاستراحة أجلس على قهوة مع المخرج وصديق آخر. أستأذنهم في إجراء مكالمة تلفونية لطفليَّ. ترد عليَّ الرسالة المسجلة: «لا أحد بالبيت الآن». أعيد الاتصال. يحدث خطأ فأسمع مكالماتي مسجَّلةً لَدَى سيف. أفزع. «ألن يكف عن انتهاكي؟».

أجدني معلقة فوق أعلى جزء لعمود صوارٍ عملاق. ربما جزء من تصوير الفيلم. الشمس تلسع وجهي وظهري. أنظر لأسفل. أرى بحيرة فيها كثير من الناس.

يسبحون. منهم من لا يسمع تحذير المخرج ألا يسبح في طرف البحيرة الشمالي حتى لا يتجمد. البعض يتجمد بالفعل. ينقذ المخرج طفلًا. يدفع به إلى المياه الدافئة. أنتظر. أعرف أنهم يعرفون أنني معلقة بين السماء والأرض. أنتظر من ينقذني. طويلًا. عندما يأتي. لا يساعدني على التزحلق على العمود كما توقعت. بل نطير معًا في الجو. لأسفل. قلبي ينخطف. ماذا لو وقعت على الأرض وليس داخل الماء؟ لا أسقط في البحيرة. لكني لم أصب بأذى. أسقط في مكان له قبة عالية. جميلة. أتنفس.

أصحو على حركة تنفسي المنتظمة. وهدوء يشملني. أشتاق لأمينة وجاسر. ونور. «هل سأفقدك أنت أيضًا يا نور؟». تأتيني نفتيس. فأكتب. وأتنفس بعمق:

اجمعْ شظايا الروح

من فوق مرآةِ الغدِ المشروخة

اجتثْ شعيراتٍ بيضاء

من الرأسِ المثقلةِ بمر السنين

لملمْ نثاراتِ حلمِ الطفولة البعيد

من بين عيدان الذرة الصفراء

أو صخور الجبال.

اخفِ انكِسارَ البريق

في عينيك السوداوين

وبقايا الأحرف المتساقطة

من قاموسِ المعنى

مسدلٌ بعد على أسرارك

دعني أنسى

أني رأيتك يومًا

أبي وطفلي الوليد

حلم الأنوثةِ المستحيل

مسفوكٌ دمه

عند قدميك

قفْ على قدميك

دعني أرى

كيف تمشي بدوني

كيف تحبو

كيف تتهجى شكلَ الأشياء بدوني.

قفْ

تجلدْ

امضِ إلى وجهِ الغدِ الوليد

وأنت حرٌّ

قويّ

قادرٌ على ارتيادِ مرافئ الحلم

كل غروب.

ألا تسمع

قفْ

دعني أراكَ

تسيرُ بدوني

حتى يمكنني

أنا أيضًا

أن أسيرْ.

* * *

وقفت دارية أمام ضابط الجوازات. تتوقع سيناريو المهانة. ولكن

- لبنان. سياحة؟

- لأ، مؤتمر شعري.

وتتنفس الصعداء عندما تمسك جواز السفر والتذكرة. تدخل بحقيبة أوراقها الاستراحة. ترشف قهوتها وهي تعيد قراءة القصائد التي ستلقيها. تطمئن نفسها أن القلق شعور طبيعي في أول تجربة لها من هذا النوع. تتلمس دفء أوراق كتابها. تبتسم. ترتج أركان المكان بصوت ميكروفون:

- المسافرة دارية محمد شمس الدين. الرجاء التوجه لمكتب مدير الجوازات.

أسرعت الخطى. وقلبها يدق بعنف توقع الآتي. سألت أول ضابط قابلها:

- مكتب مدير الجوازت فين؟

- إنتِ دارية شمس الدين؟

- أيوه. فيه حاجه؟

- لأ. ولا حاجه.

- ولا حاجه إزاي. فيه إيه؟

- بسيطه بسيطه. سيادتك مش هتسافري.

صرخت في مكتب مدير الجوازات:

- مافيش معايا أطفال على الجواز. ومعايا تأشيرة مؤتمر. يعني راجعه تاني بعد ست أيام.

- أنا آسف يا أستاذه. جوزك طالب سحب الجواز. هابعت أجيب لك الشنطه من على الطياره.

شعرت دارية أن قامتها تتضاءل. تعود بحجم جاسر. وريح المهانة تعصف بها.

لبست نظارتها الشمسية حتى لا يروا عينيها. لا تريد أن ترى الشفقة والتشفي في عيونهم. ما إن أغلقت باب التاكسي حتى انفتحت بوابات السد الحجري. وهدر الملح. «ولَوْ يا سيف. الألم اللي بيعصرني دلوقتِ أرحم من الحياة معاك. على الأقل فاهمة». عندما فتح أبوها الباب:

- فيه إيه يا دارية؟ إيه اللي رجعك؟

ذهبت إلى غرفتها. تبكي. وتشفق على أبيها من الألم. في قلب البكاء، وقعت عيناها على صورة زفاف أمها وأبيها. «ياه يا ماما. وحشتيني قوي». قرأت لها الفاتحة. وانطلقت إلى غرفة أبيها:

- إوعى تزعل علشاني يا بابا. كل اللي يجيبه ربنا كويس. بس كفايه كده. مش عايزه عفش ولا قضايا. عايزه حريتي.

- حاسس إن ظهري اتقطم يا دارية. مش عارف أخلصك.

- إوعى تقول كده يا بابا. ده انت اللي صالب ظهري طول عمرك. ثم إن ده كان اختياري. ولازم هادفع تمنه للآخر.

- يا ريت كانت أمك موجوده معانا دلوقت. يا ريتها كانت معاكِ قبل كده. يمكن ما كانش حصل اللي حصل.

- ما هي معانا برضه يا بابا.

- كنا قاعدين في نفس الأوضه دي. وكان بقالي فترة - شهور يا دارية - قالب المكتبة على «فصوص الحكم» لابن عربي. مش عارف راح فين. لقيتني باكلم أمك بنشوة وانطلاق على حب الرجل والمرأة زي ما ابن عربي شايفه. التقاء شطري ذرة واحدة روحية سابحة في محيط الكون. واكتمالهم على إنه ذوبان الجزء في الكل. الناسوت في اللاهوت. يبقوا واحد. «الواحد». قعدت أتكلم. أتكلم. كأن لساني مش ملكي. بيقول اللي هو عايزه. وعايز أستشهد «بفصوص الحكم»، رحت مادد

إيدي ورايا. على أول رف من أرفف المكتبة في ظهري. طلع في إيدي «فصوص الحكم». ساعتها يا دارية شميت ريحة بخور صندل. من ذهولي. ويمكن خوفي. ما تكلمتش. لقيت أمك بتقول لي: «خلاص. خلاص». قلت لها: «خلاص إيه؟». قالت لي: «أنا شامَّة اللي انت شامُّه». وكان يومها لقاؤنا صلاة.

ضمته دارية بقوة إلى صدرها. قبلت رأسه. واستأذنته:

- عندي إيروبكس دلوقت يا بابا. عايزه أرجع لحجمي الطبيعي.

وقفت دارية في أول صف يواجه مقدمة الصالة الواسعة. بدأت تحرك جسدها مع موسيقى الروك اللاهثة. ترقص. يمينًا. ويسارًا. تقفز. لأعلى. لأسفل. تدور حول نفسها. تركل. وتقفز. ترقص. وتطير. تنظر إلى عينيها في المرآة. عيني لبؤة. فيهما شراسة وتحدٍّ. عيون عشرين امرأة وراءها.

عن يمينها. ويسارها. تجري فيهن جميعًا شحنة واحدة. ويعلو صوت «أنجيل» فوق صخب الموسيقى: «تحكَّمي. عليك فقط أن تصدقي». يقفزن. يدرن حول أنفسهن. يركلن. يطرن. دقات الطبول لا تفتأ تشحذهن. ويصبح الجسد عجينة لدنة. يرشح خارجها ملح القهر. والفقد. والألم.

وتبقى رقرقة ماء الروح المقطر.

في طريقها إلى المنزل، قررت دارية في لمحة أن تمر على النادي. ربما وجدت الطفلين هناك. لن تتبع الإجراء المعتاد بالاتصال التلفوني أوَّلًا لتراهما. في تلك اللحظة بالذات تريد رؤية أمينة. جابت بعينيها المكان. وجدتها في حمام السباحة. جاسر ليس موجودًا. ورأت على الجانب الآخر والدة سيف. لمحت أمينة أمها فاتسعت ابتسامتها. وازدادت ضرباتها للماء قوة. لاحظ المدرب تغير أدائها:

- برافوا أمينة. برافو. كمِّلي.

أنهت أمينة التمرين محققة معدلًا غير متوقع. جرت نحو دارية التي تلقفت جسدها المبتل. يكاد يقاربها في الطول. التحما لحظاتٍ ظنتها دارية عمرًا من البهجة. غير مبالية بملابسها التي أغرقها الماء:

- لما انا وحشاكِ كده، مش بتخرجي معايا أنا وجاسر ليه يا أمينة؟

- مشغولة يا مامي. وكان عندي امتحانات.

طلبت منها دارية أن تغير ملابسها وتأتيها. ووالدة سيف هناك مكفهرة. عندما عادت أمينة مسرعة، وجدت زجاجة المياه الغازية تنتظرها على الطاولة وظرفًا صغيرا عليه اسمها.

- إيه ده يا مامي؟

- حاجة ليكِ.

فتحت أمينة الظرف وقرأت: «أشلاء

إيزيس». ديوان. دارية شمس الدين. لمعت عيناها واتسعت ابتسامتها وهي تقلب صفحات الكتاب البيضاء. تتناثر فوقها حروف خلقتها أمها. تتسارع أنفاسها من عنف الفرح وعدم توقع المفاجأة. عندما عادت إلى الصفحة الأولى، قرأت الإهداء «إلى ابنتي أمينة.. أمينة على ذاتها».

- فاهمه الإهداء يا أمينة؟

- فاكرة كلامنا يا مامي.

- إيه أخبار الباليه؟

- ما عدتش باروح. بس كسبت في مسابقة الرسم في المدرسة عن لوحة «النيل».

أمضيتا معًا فترة قصيرة. أمينة تحكي عن المدرسة وأصدقائها. وعينا دارية تلتهمانها. وتربتان وجهها البريء. مايزال محتفظًا بنعومة طفولية. وشعرها المتماوج القصير

بلون شعر أمها. بدأت تلاحظ قلقًا على ملامح أمينة وهي تنظر باتجاه جدتها. أخبرتها أنه يمكنها الذهاب إن كان هذا موعد عودتها للمنزل. وطلبت منها أن تقبل لها جاسر. وأن تحاول ترتيب وقتها لتخرج معها. احتضنتها دارية ثانية. ووقفت ترقبها وهي تسرع الخطو محتضنة الكتاب بين ذراعيها كأنه طفل وليد تخشى على جسده الهش من الأذى.

* * *

نور وأنا وسط جمع من الناس في اجتماع يغلب عليه الطابع العائلي الحميم. يتحدث. أستمع إليه. يغلب عليَّ صفاء وجودي بجانبه. يستدير إليَّ. يخرج من جيبه رزمة من النقود. يعد بعض العشرات. ويخبرني: «علشان تشتري هدوم لجاسر وأمينة». أشعر بسعادة لأنه يحبهما ويريد إسعادهما. ثم يخرج بعدها رزمة كبيرة. لا يعد عشراتها وإنما يضعها في يدي بثقل ضخامتها ويطلب مني: «واشتري لي أنا

كمان هدوم. فيه محل في الزمالك يبيع لبس شيك جدًّا». آخذ منه النقود. أنا سعيدة أنه يطلب مني أنا شراء أشيائه. عندما يقترب أحد أقاربه ويحاول أخذ النقود ليقوم بالمهمة، أرفض بشدة. سأقوم بها بنفسي.

عندما أصحو، تتبخر سعادة الحلم. صحيح أنه مهتم بي، ولكن ما قيمة عطائه لي بالمقارنة مع عطائه لنفسه. مازلت يا نور أفرح بما تكون أنت على استعداد لمنحه لي. لكن هذا لا يكفيني يا نور. لا يكفيني. أريد أن أجدك عندما أحتاجك.

أتأمل أخضر الحديقة من وراء زجاج النافذة ذات الشيش المفتوح. شجرة الليمون حُبلى ببعث جديد، رغم قهر رمال الخماسين في الأيام الماضية. أيام قليلة ويملأ عبق براعمها المكان.

* * *

دأبت دارية على الاتصال بنور في فترات وجوده في مصر. تقنع نفسها أنها تريد الاطمئنان عليه لا أكثر. إنها تريده أن يعرف أنها صديقته. تعرف أنها كاذبة. تكاد تيأس من الشفاء. كلما ظنت أنها قد استأصلت ورم العشق، رأته ينمو من جديد. ينتشر في خلاياها. بلا إذن منها. ويستشري. ونور يتباعد. يمضي في طريق مرسوم سَلَفًا. لا يحيد. «مشغول، مريض أو مسافر سأذهب إليه».

- دُرَّة. إيه المفاجأة دي؟!

- ما كانش ممكن أشوفك غير بالطريقة دي.

دخلت بوجه جامد. جلست أسفل النافذة الصغيرة. مفتوحة على مآذن «محمد علي»:

- ما تقلقش يا نور. أنا مش باطاردك. أنا جايه أقول لك حاجه واحده بس. علشان

أرتاح وأكمل طريقي.

لم يستطع إخفاء قلق ما. وبعض العصبية:

- مالك يا دارية..؟

- أنا مش ضد إنك تكون مقرر حاجه. لكن أنا ضد إنك تخدعني. تفهّمني إنك بتحبني..

- أنا فعلًا باحبك يا دارية. علاقتنا لسه بتبتدي.

- لكن انت حاطط لها نهايتها مقدمًا. نهاية كلاسيكية جدًّا. دارية دلوقت. مين كان قبلها. ومين جاي بعدها. صعب إني أقبل أكون مجرد حكاية من حكاياتك.

- دارية. أنا ما خدعتكيش.

انفجرت بوابات السد. واندفع هدير الملح. صرخت باكية:

- وعدتني تحميني. حلفتك قدام الراين.

ووعدت. ساعتها كنت باطلب منك تحميني من العالم. ماخطرش في بالي إنك انت اللي هتجرحني.

- عمري ما كدبت عليك..

- خبيت يا نور.

- كنت عايزاني أقول لواحده عاجباني. وأنا عاجبها: لأ. مش هاحبك علشان مش هاتجوزك. علشان باعوّد نفسي
ما احتاجش لحد.

- ومين قالك إني عايزه أتجوزك؟ هو انا عايزه أتجوز من أصله؟ هو انا عارفه أخلص من النقرة اللي أنا فيها؟ كل اللي اعرفه إني مش حاسَّه بوجودك. ده انا قلت لك كل ظروفي. قد إيه انا مجروحه. وانت ما يهمكش غير ان القصة تكمل. إنك تختزلني في لوحة. واروح علشان تيجي واحده بعدي.

- أنا مريض بعقدي يا دارية.

- أساعدك يا نور..

- ما حدش يقدر يساعدني. لازم أفضل أهرب.

- وفي هروبك ده ما يهمش مين الضحايا. أنا كنت فاكره كل ما يزيد ألمنا كل ما نحس بألم الناس. لكن يظهر استغراقك في ألمك خلاك تنسى ألم الناس. بالعكس انت ممكن تؤلمهم وتعمل نفسك مش واخد بالك.

- أنا مش فاهم إيه الانهيار ده. فين المصيبة؟

- المصيبة بتاعتي أنا يا نور. مشكلتي مع نفسي وهاحلها. كانت روحي في كفك. عملت بيها إيه؟ وقعت منك على الرصيف، ومشيت وسبتها وراك.

انتزعت حقيبتها. انتفضت واقفة:

- خلّيِ بالك على روحك يا نور.

- هي فين روحي دي..؟

تعتصر قلبها. ترجوه أن يتراجع. أن يطلب:

- ادّيني فرصة اقف جنبك يا نور.

- ...

- بس قبل ما أمشي عايزه أقولك إنيّ مش زعلانه منك قد ما انا زعلانه عليك. عايزه أقول لك اني لسّه مؤمنة برأي أبويا - ما فيش لقاء بالصدفة - إنت اديتني حاجة جميلة قوي. أجمل سبع أيام في حياتي. رجعت لي اكتمال إحساسيِ بأنوثتي. بإنسانيتي. تجربة رغم مُرّهِا قـوَّتني وما حدش يقدر ياخد مني القوة دي دلوقت. حتى انت. بس انا غبية برضه. أي حلم له نهاية. لسه ما اتعلمتش الدرس القديم «السعادة إنك ما تطلبش».

لملمت دارية بقايا الملح. يكوي جرحها.

ويطهره. ونور متكور على الكنبة. رأسه محني. وقد بدا نصف حجمه. في عينيه بريق الملح. ينذر بالهدر القادم. تندفع روحها إليه. ولا تتحرك قدماها. يشيح بوجهه بعيدًا. فتترك بين يديه آخر وريقاتها. وألم ذهاب الحلم يهصرها. يخبرها أنها تترك خلفها طفلها المجروح. ولا يلوم.

- لواحتجتني يا نور. لو....

عندما أغلقت الباب وراءها. قرأ نور القصيدة:

زهرة القطيفة السوداء

تبسط وريقاتها

لنقاط الندى

تبلل أشواقها

وحنينها

وجنونها

تتفتح

للقمر المكتمل

بين سواد المئذنتين

ونثارات النجم الفضي

زهرة القطيفة السوداء

في وجه الزمن المارق

تبكي وحدتها

وجنون ثورتها الآتي

زهرة القطيفة السوداء

تنزف

حلمها المسكوب

في بحيرة الحزن المنسي

كبرياء الجمال النبيل

النائم لا يزال

في حضن الغد.

* * *

الضفة على بعد ذراعين. أضرب الماء بقدمي لأسفل. أندفع لأعلى. فيغمر وجهي ضوء شمس حانية. أستند بكفي إلى طمي الضفة المعشوشب. أخرج من الماء. أشعر ببرودة لا تزعجني. ألمح الجبل من بعيد. بيني وبينه ترقد الغابة في سكون. حبلى بأسرارها. «المهم ألا أتوه في الداخل». أنفض جسدي وشعري. فيتساقط الماء. أقرر أن أسلك خطًّا مستقيمًا. أسرع الخطو حتى ألحق بخيوط الضياء الذاهبة. خطواتي عارفة. كأنني ألفت المكان. «ألا تشبه هذه الأشجار سرو

ألمانيا؟!». يخرج عليَّ من بين الشجر الجسد الأسمر النحيل. ووجه الطائر ذي المنقار المعقوف. إنه إيبس. «هل أنت حتحوت إذن؟!». أجفل للحظة. لكني أهدأ. كأنني أرى ابتسامة خفيفة من وراء القناع. يقترب مني. يثبت حول صدري درعًا من فروع شجرة لا تزال عفية. أعرف أن أخضر وريقاتها تعويذة تحمي. «هل استنشقت رائحة الجلد هذه من قبل؟!».

تدب قدماي الحافيتان فوق الأرض الرطبة. أنظر فوقي. عصافير وقرود تتقافز فوق أغصان الشجر العملاق. يحجب الكثير من الضوء الذي ينسحب رويدا. أسرع الخطو. أعرف أنني أوشكت على اختراق الغابة. تَخِزُني فروع الشجر الخشنة الرفيعة حول صدري. «هذه تعويذتي». ينفتح المكان على ساحة رملية واسعة. تتوسطها شجرة وحيدة. ثم الجبل. أسرع الخطو نحو الشجرة وقد خيم الظلام. إنها.. إنها صفصافتي. ليست عجوزًا. بل في فوِرة شبابها. عندما أصل إليها أنشر ذراعَيْ

شوقي وأحتضن جذعها. عيناي مغمضتان. أتنفس بعمق. أستنشق. «هل يشبه رائحة جلد أمي؟!». أسمع صوتًا. «هل يأتي من بعيد. أم من داخلي؟!». صوت تتاليات أمواج بحر. ثم ارتطامها بصخور الجبل. على الناحية الأخرى. رائحة اليود تملؤني. أعود بعينيَّ إلى قمة الجبل. إن استطعت الوصول قبل الفجر فسأشهد الشروق من هناك.

أبدأ الصعود. قدماي فوق الصخور الخشنة. ويداي تتشبثان بأعلى. فأرتفع. مرة. ومرة. ومرة. ألهث. «لِمَ العجلة؟!». سؤال يأتي من داخلي. فيرجّني. أقف. فتخف حدة لهاثي. أنظر خلفي. أرى الوادي الرملي. تتوسطه ابتسامة صفصافتي. من ورائه الغابة. طبقة إسفنجية كثيفة. عندما أعود بعيني إلى الجبل ألاحظ للمرة الأولى جمال تكوينات صخوره. وُجوهًا ذات أنوف رومانية. قَرنَيْ حيوان. نهديْن. جسد ديناصور. أعيد النظر. فيعاد تشكيل الأشياء. ألاحظ في ضوء نصف قمر بعيد أن بالجبل

تجويفات كهوف. «تُرى ماذا تحوي؟!».

أخطو إلى اليمين في اتجاه أولها.

أفتح عينيَّ ورائحة زمن آخر تهدهدني. أفتح زجاج النافذة على نوت تنشر جناحين من زرقة خالصة. مشربة برائحة زهر الليمون. ينفض من فوقه رمال الخماسين الصفراء. وعبق الياسمين الهندي. يتشكل حروفًا وكلمات. أسحب من جانبي ورقة بيضاء. وقلمًا. وأكتب.

* * *

سحر الموجي

من مواليد القاهرة ١٩٦٣.

مدرِّسة الشعر الإنجليزي بكلية آداب القاهرة، ومذيعة بالبرنامج الأوروبي بالإذاعة المصرية، وكاتبة مقال.

صدر لها:

- «سيدة المنام» مجموعة قصصية. ١٩٩٨ و ٢٠٠٥.

- «آلهة صغيرة» مجموعة قصصية. ٢٠٠٣ و ٢٠٠٦.

- «دارية» رواية. ١٩٩٩ و ٢٠٠٣. (حصلت على جائزة أندية الفتيات بالشارقة ١٩٩٨).

- «ن» رواية. ٢٠٠٧.